الزائر رقم ١٩

أمل صلاح

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان: مدينة العبور – الحي السادس، فيلا ٨ ،مدخل ١

الهاتف: ١٠٠٣٢٨٨٥٩٦(٠٠٢٠)

إلكتروني بريد:dream.pen92@gmail.com

الزائر رقم ١٩

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠م

غلاف: عمار جمال

تدقيق لغوي: وفاء محمد

تنسيق وإخراج داخلي: أحمد مسعد

رقم الإيداع: ١٩٤٠١/ ٢٠٢٠

I.S.B.N \ 978-977-6794-47-4

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نَسْخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطي من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

الزائر رقم ١٩

أمل صلاح

الإهداء...

إلى كل من دعمني ولو بكلمة، إلى كل من شد على يدي وهو يخبرني، بكل ما أوتي من إخلاص: إنني «أستطيع»! إلى هؤلاء الذين يحيطون بي من كل جانب وكأنهم يخشون ضياعي..

مقدمة

«إن أنت ركنت إلى العقل لن يكبر غير الحواس. وإن أنت أبحرت في مياه العاطفة سيجرفك تيارها. وإن غلبت إرادتك فسينتهي بك الأمر للتضييق على نفسك. وكيفما قبلت الأمر ستجد في النهاية أن الحياة في عالم البشر ليست بالأمر الهين!»

أعجبتني جدًا تلك العبارة حينما قرأتها ذات مرة، ووجدت أني حفظتها عن ظهر قلب. قد يكون ذلك بسبب إيماني العميق بمعناها، ولأنني أعلم جيدًا أنه كلما زاد القلق من حولنا، زادت رغبتنا في البحث عن مكان هادىء ومستقر آمن. لكن الحياة أقسى من أن توفر لنا هذا، وزاد من حدة القلق والتوتر تفشي «كوفيد-١٩»! هذا الزائر الذي اقتحم العالم فجأة دون سابق إنذار، ووطئ بقدميه جميع البلاد، لم يقتصر على بعضها وحسبٍ كما فعل أشياعه من قبل، فأصبح حقًا زائرًا ثقيلًا! وبسببه ضُرب علينا حصارٌ مفاجئ شامل! بل إنه ألجأ البعض للاتكاء وحيدًا على منضدة طالما جلس عليها مع أقرب الناس إلى قلبه! لقد غيّب أرواحًا لم نكن لنظن يومًا أنها ستغيبب!

رائحة الخوف، القلق، المرض، ولا مانع من بعض المواقف المضحكة، لم أستثنِ أيًّا منها في كتابي! فقد تعمدت أن أدور داخل «الحصار»، وأن آتي لكم بجل ما وقع داخله إن لم آتِ به كلَّه.

أخيرًا.. أعدك أيها القارئ الكريم أنك ستحب هذا الكتاب، سواء كنت رجلًا أو امرأةً، صغيرًا أو كبيرًا، شاعرًا أم تاجرًا، وحتى لو كنت سياسيًّا. ستحب صفحاته، وستعيش في روح أبطاله، تضحك على نكاتهم وتتألم لمرضهم ووجعهم، سوف تشاركهم الحصار بكامل رغبتك ومشاعرك، فتُقَلّبَ صفحاته برفق خشية أن تزعجَ ساكنيها، سيطوف الهواء من حولك حسّاسًا رقيقًا كقلب عاشق ولهان، حيث تُمزَجُ الفِكَرُ بطلاوة العاطفة، متوشحةً بنسيم الخيال.

أمل صلاح

(١)

لا أحد يوبخني ولا حتى يفكر أن يعارضني! ومن الأفضل ألا أخبركم باسمي، لكنني سأخبركم بتجربتي في تحويل الخيال إلى واقع! لقد قررت في لحظة حماس أن أحول مأساة «الحظر» إلى «وقتًا للمرح» لنستمتع جميعًا! أليست هذه ماهية الخيال؟! إنه تحويل الواقع بشكل تلقائي ومحترف إلى جوهر الحياة..

أردت ذلك بشدة، وأعددت له العدة. كل شيء واضح في مخيلتي الآن، فقط يبقى البدء في التنفيذ! لن تتكرر مثل هذه الفرصة مرة أخرى، أنا وزوجي وأبنائي معًا بشكل إجباري! لا بد أن أستفيد من هذا الحبس الجماعي، وأصنع منّا أشخاصًا مختلفين تمامًا عمّا نحن عليه الآن. جميعنا يحتاج إلى تغيير داخلي وخارجي، الخطوات موضوعة بدقة وبراعة، بقي فقط أن أتفق معهم على آلية التنفيذ.

أصبحت مغمورة من رأسي حتى قدمي وبكل مشاعري منساقة حول هذه الفكرة الجامحة! الأفكار تخرج من رأسي مندفعة تحلق في سقف البيت وتطير من غرفة إلى أخرى وتحط على رؤوسهم لكنهم لم يروها بعد!

لقد عشت ردحًا من الزمان طويلًا أستمع للمحاضرات الصوتية، وأحضر الدورات التدريبية، وأقرأ الكتب والسير الذاتية، حشوت نفسي بالكثير والكثير، ولم أبخل على نفسي أيضا بحشوها بالطعام حتى أصبحت بالونًا منفوخًا! لكن لا بأس، سنبدأ من جديد،

وكل ذلك سوف يتغير..

كانت خطتي كالتالي: اِستغلال فترة الحظر فيما قضيت عمري كله أقرأ عنه، وهو كيفية تحويل حياتنا للأفضل، بحيث نتحول لقصة ملهمة لمن حولنا! سنستعيد رشاقتنا، حياتنا، سنعود إلى ملابسنا القديمة التي باعد بيننا وبينها أكثر من خمسين كيلو جرام على الأقل! سنمارس الرياضة يوميًا، سنعتمد النظام النباتي، سنكثف الساعات التي تجمعنا معًا، وسنقلص ساعات استخدام الهواتف..

«هل أنتِ واثقة من قدرتك على فعل ذلك؟!» سألتُ نفسي، وأجبتها بسرعة: «تمام الثقة!» خاصة أني سأهيئ البيت لتقبل الفكرة ومن ثم تنفيذها، أحاصرهم ونفسي حتى لا تكون أمامنا فرصة لغير ذلك، أضيف للبرنامج ثلاث ساعات لممارسة « اليوجا « أسبوعيًا، إن فوائدها جمة، فهي تهذبنا وتعودنا على الصبر

خلاصة القول: سأعيد الشغف إلى حياتنا مرة أخرى! لقد أخبرت زوجي ذات يوم إن الزوجين اللذين يقضيان أعوامًا طويلة معًا يصلان إلى حالة «الأشقاء»، وهي حالة لها روعتها الخاصة، فهما يصبحان قريبين الشبه من بعضهما، يتشاركان الملابس نفسها، يحملان نفس الافكار والأهداف، لا يبذل أحدهما مجهودًا كي يلفت انتباه الأخر، ولماذا؟ لقد صارا كأخوين!

هل سألت نفسك يومًا: لِمَ علاقة الأشقاء مميزة؟ لقد نشآ سويًّا، وقضى كل منهما عمرًا مع أخيه، يتشاركان نفس السقف، الجدران الصحن ، الكأس، المواقف المضحكة ونفس الذكريات

الحزينة، وهذا تمامًا ما يحدث للأزواج بعد مضي عشرين عاما أو أكثر على مشاركتهم نفس الحياة! فإن كلًّا منهما يطبع صورته ويترك بصمته على الآخر..

تمامًا كما حدث لنا، فقد أصبحتُ وزوجي «دائرة» متدحرجة، منقوش عليها علامات الزمان، كخربشات على جدران حائط قديم، ورغم كون الأمر مريح جدًا، ويدعو للهدوء والسلام، فلست بحاجة لتمشيط شعري الذي بات أشبه بـ «عش عصافير» ولا لشفط « بطني» وأنا أجلس معه! ليس هناك داع لأي مجهود يُبذل في جواره، فها هو يرقد أمامي بالساعات على الأريكة يشاهد مسلسلًا تركيًّا يتحسر فيه كل دقيقة على «حظه العاثِرْ، إذ لم يُرزق بزوجة كهذه الممثلة الفاتنة! في الحقيقة، لقد كان جديرًا بذلك! ولِمَ لا فهو أنيق جدًا بثيابه الداخلية شبه الممزقة! والتي يأبى أن يلبس غيرها بحجة «الحر»، ويده التي لا تتوقف عن حك «كرشه» وذراعيه وظهره، ورأسه التي فقدت معظم شعرها عن طيب خاطر! لم يكن كذلك في بداية زواجنا، لقد ازداد وزنا، كسلًا، ولكنه ازداد حبًّا أخويًّا وهدوءًا، فقَدَ شغفه واهتمامه بنفسه كما فقدته أنا أيضا! لا يهم، سنبدأ من جديد، وسنستغل الحظر لاستعادة ما فقدناه.

استدعيتهم جميعًا في تمام الساعة الثامنة مساءً، لاجتماع طارئ يتوقف عليه مستقبلنا! على كل واحد منهم أن يأخذ حمامًا ويرتدي ملابس الخروج. فغر زوجي فاه مندهشًا من طلبي الأخير، وهو لا يزال ممددًا على الأريكة ممسكًا بهاتفه ثم سألني:

- ما ضرورة الاستحمام وارتداء ملابس الخروج؟ هل سيحضر الاجتماع أحد غيرنا؟

- لا..

أجبته وعيناي تطلق شررًا كافيًا لحرقه!

- إياكِ أن تفكري!

قالها محذرًا ثم تابع:

- ستنقلين الاجتماع «لايف» على الفيس بوك؟! أرفض ذلك تمامًا!

- لا لن أفعل ذلك!

قلتُها وأنا أنفخ غضبًا..

- على قناة اليوتيوب لتتكسبي من ورائنا؟

- هل تعتقد أن قناة تعرض هذه الأشكال ستجلب لنا المال؟

- لو كان الهدف منها الكوميديا أو السخرية...

سكت لحظة ثم تابع..

- لماذا لا نجلس على راحتنا في بيتنا؟ لم هذا الشعور الكئيب أننا في قمة عربية طارئة يا «كوفي» بيه!

- اذهب واستحم وارتدِ ثيابًا مبهجة تناسب اجتماعنا!

قلت ذلك بحزم.

- أمرك يا «عنان» باشا!

قالها وهو في طريقه للحمام..

تجهّزتُ أنا أيضًا، وكنتُ قد اتخذت قراري بما سأرتديه مسبقًا، لابد أن يعرفوا قبل أن أتكلم ما نحن بصدده! سيعمل مظهري وحده على توصيل ثمانين بالمئة من الرسالة قبل عرضها.. ارتديتُ فستانًا اشتريتُه قبل خمسة عشر عامًا للاحتفال بذكرى زواجنا السادسة! لا بأس سيحقق الهدف منه، ولا يهم إن كان ضيقًا قليلًا! ليس قليلًا في الحقيقة بل كثيرًا، فقد توقف السحّاب (السوستة) في منتصف الظهر، وأقسم يمينًا غير حانث فيه ألا يتحرك ملليمترًا واحدًا أكثر من ذلك! لا بأس، سيصبح كل ذلك من الماضي، وسنبدأ حياة جديدة، ارتديتُ حذاءً ذا كعب عالٍ، بدا من الواضح جدًا أنه لا يتحمل وزني ويترنح تحتي، كما أنه أصبح ضيقًا أيضًا، هل كبر مقاس قدمي عن ذي قبل؟ لا يهم، فالقادم أفضل..

بحثت في أغراضي عن أحمر الشفاه (الروج)، وأخيرًا وجدت نصف قلم في علبة الخياطة! كان ذائبًا له رائحة عجيبة فقد اشتريته أيام عرسي! لابد أن أشتري أدوات زينة جديدة لتناسب المظهر الجديد. وضعته على شفتي فجعلها تبدو كدائرة غير مستوية، هذا ما يفعله الـ (فاشون بلوجر) الآن! ينفخن شفاههن ليعلن عن ماركات (الروج) العديدة! مشطت شعري بمحتوى علبة كريم شعر كاملة، إذ لم يصلح أقل من ذلك، ولم ترضخ لي ولا شعرة إلا بعدما أفقدتهم توازنهم جميعًا وحملتهم بأكوام الكريم، ثم رفعته للوراء، كما تفعل سيدات الأعمال أثناء حضورهن الاجتماعات، ليبدو عليهن الجدية، فزاد ذلك من استدارة وجهي. لا يهم أيضا، سيغدو ذلك ماضيًا خلال أسابيع

قليلة..

توجهت وأنا أتمايل، ليس أنوثةً، ولكن بسبب الكعب الذي انكسر على ما أعتقد، قبل أن أتحرك خطوة واحدة! ابتهلت إلى الله كي يصمد فقط حتى أصل لمكان الاجتماع! جلست على مقعد في المواجهة حتى لا ينتبه أحدا لظهر الفستان المفتوح، لم يكن هذا عيب الفستان الوحيد فقد أوشك على التمزق، خاصة عندما جلست. لقد ظهر كتفاي كجذعي شجرة بلوط، وبرزت بطني للأمام كأنها شخص أخر يجلس معنا!

كان زوجي أول من وصل بعدي، علي أن اعترف أنه يخشاني أكثر مما يخشاني الأولاد! وكأنه أدرك الهدف من هذا اللقاء الأسري، أو لعله لمحني وأنا أستعد فقرر أن يحذو حذوي. كان يرتدي قميصًا مشجرًا اشتريناه ذات يوم من أحد الباعة الجائلين على شاطئ البحر في أحد المصايف، عليه رسومات سماء، و شمس، وأطفال يلعبون، كل ذلك كان مرسوما على القميص الذي أبت أزراره أن تُغلق من عند منطقة البطن! اكتفى زوجي بثلاث أزار وترك الباقي مفتوحًا كراهيةً وليس طوعًا. وبنطالًا قصيرًا قطنيًا مهترئًا، لكنه يحبه جدًا ويعتبره مناسبًا جدًا للحر. ووضع ما بقي مني في جوانب علبة الكريم على الشعرات القليلة المتبقية لديه ثم سحبها من أقصى رأسه الأيمن إلى الجانب الأيسر.

حبيبي أنت يا زوجي وشريك عمري تلمح ما يدور في خلدي

قبل أن أتفوه به! ألم أقل لكم أننا أصبحنا أكثر من مجرد أشقاء، أشكرك من كل قلبي فقد سهلت علي المهمة! وقبل أن يجلس أمامي وضع يده على ظهري العاري في إشارة خفية أن الفستان لم يعد مناسبًا. نظرت إلى بطنه العاري من تحت قميصه، ورفعت حاجبي الأيمن وضيقت عيني اليسرى استعدادًا للهجوم! إلا أنه تقريبًا كان قد أدرك ما هو بصدده، فقال بسرعة:

- ما كل هذا الجمال؟

فهمت من نظارته أنه يُكفّر عن خطئه فآثرتُ السلامة، وهممتُ أن آخُذ نفسًا عميقًا، لكني خشيتُ على الفستان فقطعتُ النفس وشفطتُ بطني، وهمست له برقة مصطنعة:

- نادي على الأولاد..

نادى للمرة الخامسة عشر، وأخيرًا خرج ثلاثتُهم من الغرفة، لم يبدل أحدهم ثيابه ولم يأخذ أحدٌ حمامًا! شعورهم منفوشة كشعري قبل أن أضيف إليه علبة الكريم، جلسوا بجوار أبيهم، وفجأة.. بدأت نظراتهم تتغير! عندما نظروا لنا وكأنهم يستوعبون للتو مظهرنا المختلف. اتسعت ابتسامتهم وأنبأت عن ضحكات مكتومة، قال أكبرهم:

- هل هي حفلة تنكرية؟!

وانفجر ضاحكًا تبعه إخوته ووالده. قال الأصغر:

- اليوم عيد زواجكم.. صح؟

سأل ثم تابع: لابد أن هناك سببًا لهذه الأناقة الطارئة

عليكم!

رد الأوسط:

- أعتقد أنهم مرشحان للاشتراك في «ذا فويس»!
- هل نبدو كمهرجين؟!

رد الثلاثة في صوت واحد:

- أعوذ بالله! من قال هذا!

نظرت لزوجي، الذي انشغل بوضع قطعتين من الكيك في صحنه بعدما ملأ فنجانه بالشاي، لكي يتدخل لردع أولاده، لكنه أعاد ظهره للوراء ووضع الطبق على بطنه وبدأ يتلذذ بالشاي! لا يهم، فلن تدوم تلك المأساة مستقبلًا! أعلنت لهم: «لا كيك بعد اليوم»! فمد يده وأضاف قطعتين لطبقه، وقال:

- كلنا آذان صاغية.

كدت أن أنسى وآخذ نفسًا، قبل أن أتذكر أمر ضيق الفستان، فاكتفيت بالنحنحة.

- كما تعلمون.. نحن بصدد مواجهة فيروس خطير لم يبلغ ذروته بعد.

- هل ستعملين في منظمة الصحة؟!

سأل أحد الأولاد.

- بالطبع لا! من الواضح أنها ستعمل في الصليب الأحمر، ألا ترى لون الفستان والحذاء!

أجاب آخر.

نظرت إليهم والشرر يتطاير من عيني، ثم تابعت كأني لم أسمع تعليقاتهم السخيفة!

- هذا يعني أننا سنبقى في البيت معا لفترات طويلة بسبب الحظر وعلينا استغلال ذلك.

- ستعملين في الإرشاد الصحي؟ الأسري؟

سأل زوجي متفاجئًا بمقدمة حديثي ومستفسرًا.

- لن أعمل في أي مكان!

صرخت فيهم:

- دعوني أكمِل حديثي!

صمتوا جميعًا وفتحوا عيونهم وأفواههم!

- تفضلي! نعتذر! أكملي..

- إننا نعاني من عدة مشاكل؛ صحية، بسبب زيادة الوزن، وعدم ممارسة الرياضة، نفسية واجتماعية، بسبب انشغالنا بهواتفنا، وبعدنا عن بعضنا، فعلينا أن نعالج هذه المشاكل خلال فترة الحظر. ولذلك قد وضعت الخطة الآتية:

سنمارس الرياضة ساعتين على الأقل يوميًا ومعًا.

- أي مكان في شقتنا يستوعبنا للممارسة الرياضة معًا؟

- الصالون، لقد فكرت جيدًا ووجدت الحل! بما أننا في فترة لن نستقبل فيها زوارًا، فليس هناك فائدة من إغلاق غرفة على مقاعد فارغة!

- والصالون؟!

- سأبيعه مؤقتًا وأشتري أدوات رياضية، لا بد من تغيير نمط حياتنا!
- وبعد الحظر؟

سأل أحد الأولاد.

- الحظر لن تقل مدته عن عام، فمن الغباء ألا نستفيد من الغرفة طيلة عام كامل، ثم بعد الحظر نستطيع أن نشتري واحدًا غيره.

صمت الأربعة كما لو أن على رؤوسهم الطير، فقد أدركوا -على حد ظني- إصراري وأني قد اتخذت قراري.

- والصالة أيضا! سنستبدل الأرائك التي تنامون عليها ليلًا ونهارًا بطاولات ومقاعد، كما لو كان مطعمًا لن يُقَدّم فيه إلا الغذاء الصحي!
- غرف النوم، هل ستبقى كما هي أم نستبدلها بمقاعد بلاستيكية؟!
- ستبقى.

رددت بكلمة واحدة.

- ساعتان من التمارين المستمرة يوميًا أمر يلزمه نظامٌ غذائيٌ جيدٌ. لذلك قررتُ أن نتحول جميعًا إلى النظام النباتي..
- هل سنعتنق البوذية أيضًا؟
- لا، سنبقى كما نحن، فقط سنعتمد النظام النباتي لصالحنا جميعًا.

وعند هذه النقطة، رأيتُ الاستسلام في عيونهم جميعًا، فانتهزتُ الفرصة وتابعت، سنتشارك الحديث يوميًا لمدة ساعتين، وسنقلص استخدام هواتفنا التي باعدت بيننا، سأقوم بإيقاف تشغيل النت من الساعة الثامنة إلى الساعة العاشرة.

- هل ستطفئين مفتاح الكهرباء أيضًا لنمارس التأمل!
- لا شجار ولا مشاحنات، سنخفض أصواتنا جميعًا، وسيستوعب بعضُنا بعضًا، كما أننا سنتقاسم أعمال المنزل سويًا.

تابعتُ غير متلفته لتعليق زوجي. لم يعترض أحد، وانشغل كل منهم بالتهام الكيك المتبقي في طبقه، خاصة بعدما أدركوا أن لا مزيد من الكيك بعد الآن! وعندما انتهى كل واحد منهم من طعامه، قام تاركًا بقاياه على الطاولة، لا يهم! بدءًا من الغد سوف نبدأ عهدًا جديدًا! رفعتُ الطاولة ونظفتها، ثم توجهت نحو الثلاجة، فتحتها وجمعتُ كل ما فيها من لحوم ودواجن وأسماك وبيض وحليب -بمشتقاته-، وكل ما له روح! فسنبدأ العصر النباتي، كاد قلبي يتمزق على قالب «الجبن الرومي» لكن لا بأس، ففي سبيل الرشاقة سأتخلى عن أي شيء!

اتصلتُ بحارس العمارة وطلبتُ منه الصعود، فلن أؤجل عمل اليوم إلى الغد! أعطيتُه كل ما كان في الثلاجة، وطلبت منه أن يشتري لي في الصباح الباكر كمية من الخيار والجزر والخس تكفي لمزرعة من الأرانب! فنظر إليّ الرجل متعجبًا وهو يحمل كيس اللحوم، وكل ما يتمناه هو إطلاق ساقيه للريح قبل أن أعود عن قراري! كما

طلبتُ منه أن يأخذ الصالون، وأن يجد من يشتريه. فتح الرجل فمه وعينيه ورجع عدة خطوات إلى الوراء، ونظرات الهلع بدت واضحة جدًا عليه! ضحكت كثيرًا عند رؤيته على هذا الحال، فقد اعتقد أننا أُصِبنا بفيروس كورونا!

طمأنته وأخبرته بكل هدوء:

- لا شيء خطير، فقط قررنا تعديل السلوك الحياتي لنا.

إلا أن الرجل فتح فمه أكثر ونظراته تنطق عن شيء فيما معناه: «أحدنا غبي»، وطبعا لم يشك في نفسه! لكني لا أبالي، فسنصبح قدوة عما قريب وسيضربون بنا المثل في اللياقة البدنية!

انتهى الرجل من نقل مقاعد الصالون، وأخذ كيس الطعام، وهو يؤكد لي أنه سيحمل لي الخضروات والفاكهة في الصباح الباكر، نمت في هذه الليلة قريرة العين كما لم أنم من قبل! الثلاجة فارغة تمامًا، ليس بها سوى نصف ليمونة وزجاجة دواء للسعال في بابها، وكذلك غرفة الصالون فارغة بالكامل استعداد لتجهيزها كصالة رياضة لنا. في هذه الليلة رأيت أحلامًا جميلة، عاد إليّ فيها قوامي وجمالي، كنت أشبه المطربة اللبنانية «نانسي عجرم»، وكنت أرتدي «شورتا» ذهبيًا كذلك الذي ترتديه في برنامج المواهب الصغيرة، وكان شعري الذهبي يتناثر حولي كشعرها تمامًا، أعجبني جدًا لونه في الحلم، وعندما استيقظتُ من نومي كان أول ما فعلته أن طلبت من ابنة الحارس أن تذهب لتشتري لي صبغة بنفس لون شعر «نانسي عجرم»!

أشعر وكأنني أصبحت خفيفة كمثقال ريشة، رغم أنني

لم أبدًا بعدُ في ممارسة الرياضة، ولم أفعل شيئًا حيال تنظيم عاداتي الغذائية، لكنّ الطاقة الإيجابية والرغبة الملحة في التغيير يدفعانني للاستمرار والتقدّم! كنت مبللة تماما برغبتي في التغيير، «أي تغيير سيكون جميلًا ومفيدا»! هكذا أقنعت نفسي حتى لا تتمرد بين الحين والآخر! كان اجتياح ذلك الشغف المفقود قد فتح لي أبوابًا عدة للخيال والتطلعات، وكأنه قد حفر لي هوة عميقة سقطت داخلها!

لم تتأخر ابنة البواب فلم تكد تمر نصف الساعة حتى وجدتها تدق جرس الباب بإلحاح وبهجة، كما لو كانت أحضرت معها «نانسي» نفسها وليس صبغة بلون شعرها! ومن ناحيتي فلم أتأخر أيضًا، ولم أنتظر حتى تنتهي زوبعة الفطور، ويلجأ كل واحد لمخبئه. دخلت الحمام وأغلقت على نفسي، بعدما جهزت كل الأدوات المطلوبة، للبدء في مرحلة التغيير الشامل ! علينا أن نأخذ قرارات جريئة تقتلع جذور الرتابة من أوقاتنا. إن سعادتي المفرطة بذاتي، وبقدرتي الهائلة على الإقناع التي مارستُها أمس أثناء الاجتماع الأسري القصير مدعاة للفخر! إن مكاني ليس هنا كـ «ربة بيت» عادية، ولكن لا ضير، فلن أبقى على هذا الحال! خاصةً بعد أن تصبح تجربتنا مضربًا للمثل في التميز والنجاح، وتطلب منا الفضائياتُ مشاركتها على الهواء لكي يتم تعميمها!

أفرغتُ محتويات الأنابيب في طبق بلاستيكي، وخلطته جيدًا بالفرشاة، وارتديتُ القفازات المخصصة، ثم بدأت في توزيع الخليط على شعري. لا أدري لماذا تذكرتُ ذلك اليوم، حيث كنت في نهاية

عامي الأخير في الجامعة، حين أعد اتحاد الطلبة يومًا للاحتفال بتخريج دفعة جديدة، كنت قد اتخذتُ قراري ألا أحضر الحفل، إلا أن زميلاتي قد أصررن على أن نذهب جميعًا، وأقنعوني بضرورة حضور مثل هذه الحفلات. وافقتُ، لكن لم يكن لدي الوقت الكافي للاستعداد، لكن طبيعتي المتجاسرة المندفعة لم تستسلم لهذه الفكرة! تركت الجامعة وذهبت إلى وسط البلد في يوم أشبه ما يكون بالجحيم! شديد الحر، شعرت بأثره الحارق على جسدي لدرجة موجعة! بحثت عن ملابس تناسبني، «إن الأشياء التي تناسبنا لا نراها بسهولة»، ولذلك فقد اخترت يومها فستانًا يناسب صديقتي أكثر مني!

لم ارتدي قبل هذا اليوم أبدًا فستانًا أصفر كناري! فلماذا اخترت هذا اللون؟ هل كان تأسّيًا بحياة العصفور الحرة، أم طلبا لحالة من حالًات الانسجام التام مع الذات والدندنة الرنانة التي تسري في وجدًاننا عند سماعنا صوت العصافير، ليس غريبًا أن يُسمى تغريده بـــ»الزغردة». نعم، لقد أردت أن أصل لحالة الزغردة النفسية! لم أعلم حجم الخطأ الفادح الذي ارتكبته حينما أردت محاكاة كائن يبلغ أقصى وزن وصل إليه ٣٥ جرام، إلا بعدما أصبحت في مرمى هدف الجميع! واشتريتُ حذاءً له نفس اللون، وحقيبة صفراء اعتقدت زورًا وبهتانًا أنها تناسب ما اشتريته!

قبل هذا اليوم كنت أعيش حقيقة كاذبة مخادعة جدًا، ألا وهي: إن «الاناقة» تكمن في أن تكون كل القطع بلون واحد! من أي دار أزياء اقتنصت هذه الأكذوبة الصفراء؟! ولم يتوقف الأبدًاع،

بل استمر وتسرب اللون الناصع إلى الحجاب أيضًا! وأخيرًا عدت إلى البيت وأنا سعيدة بقدرتي الهائلة على الاختيار والتنسيق! كنت أشعر وقتها بنفس الخفة التي أشعر بها الآن وأنا أفرد الصبغة على خصلات شعري، وتلمع عيناي ببريق الحماس الذي ينطلق منها كأشعة «إكس»

نظرت لوجهي في المرآة فإذا به محترق كقطعة «لحم» نسيناها على الفحم حتى تقرحت! فاتصلتُ مسرعةً بالصيدلية، وطلبت منهم «كريم تفتيح البشرة»! بالمناسبة، أنا شخص لا يستسلم أبدًا، فليس معنى احتراق بشرتي أو تأثرها بالشمس أنّ شيئًا سيؤثر على «أناقتي»، أو أن غدًا سيكون هناك أجمل مني، كل هذه ترهات وافتراضات فارغة!

جاء الصباح أسرع مما اعتقدت! وقبل أن يتمكن جسمي من الحصول على حظ وافر من الراحة. لا يهم! طرتُ نحو الحمام كما يطير العصفور، ابتسمت عندما تذكرت العصفور الذي سأرتديه الآن. بعدما رفعت آخر مليمتر في السحاب «السوستة»، أدركت أنه كان من المفترض أن يكون قياس الفستان أكبر من ذلك القياس، فبدوت كـ «منطاد» مستعد للتحليق! لكن ليس هناك وقت لأي تغيير. أحيانًا يكون الرضا بالواقع هو كل المتاح حتى تستمع باللحظة التي تعيشها، وإلا فستعيش محرومًا من نعم كثيرة.

لففت رأسي التي لا أعرف سببًا لزيادة استدارتها في ذلك اليوم! حشرت قدمَيّ في الحذاء الأصفر ذي الكعب العالي، فشعرت أني أتمايل، خاصة أن حرارة الأمس أصابتني بتقرحات جلدية، ما جعل

طريقة مشيي مضحكة! وقبل أن أنزل من البيت، وضعت كمية كبيرة من الكريم المفتّح للبشرة، ولم أنتبه للتحذير المكتوب عليه: «تجنب أشعة الشمس تمامًا عند وضع الكريم»!

كنت أشم رائحة احتراق لشيء ما، لم أتخيل أبدًا أن وجهي يشتعل بفعل حرارة الشمس والكريم! أخيرًا وصلت للجامعة، كانت التقرحات تملأ وجهي كما لو كنت قضيتُ ليلتي في برميل «حمض كبريتيك مركز»! ولأنني أنظر دائما لنصف الكوب الممتلئ، وأدعو غيري لذلك، فعليّ الاعتراف إذن! لقد كنت محطّ أنظار الجميع، كنت المعنى الحرفي ل «شعلة» و «كتلة»، لقد لقّنتُ الجميع درسًا في كيفية التغيير، التغيير الذي يفرض نفسه على الجميع، لا يمكنك تجاهله، إنه يخطف الأبصار، ويأخذ بتلابيب العقول، لقد حفرت في وجدًان الجامعة كلها -وليس فقط الدفعة- ذكرى لا تنسى!

يتملكني نفس الشعور الآن وأنا أقرر هذا القرار المصيري بتغيير لون شعري، لقد امتزج الخليط بكل خصلة في رأسي، فقمت بتغطيته بقبعة بلاستيكية مخصصة، ونزعت القفازات التي لم أنتبه إلى أنها مثقوبة! فقد جرفتني الذكريات بعيدًا.. أبت الصبغة أن تستسلم لرغاوي الصابون فتركت لونًا أسود على أصابعي وأظافري! لا بأس، ستختفي مع الوقت. خرجت من الحمام على صوت صياح الجميع، شجار واعتراضات وصرخات مصدرها المطبخ! توجهت مسرِعةً إليهم، وجدت كل منهم يبحث عن إفطاره، رغم وجود كل ما قد اتفقنا

عليه سلفا من أطعمة: الخيار والخس والجزر والتفاح وبعض الفواكه الأخرى! إلا أنهم لم يقاوموا حالة الجوع الملحة.

- أريد شطيرة جبن رومي!

قال أصغرهم، فرددت:

- خذ جزرة!
- أريد الشاي بالحليب!
- اشرب (شاي سادة)، وخذ جزرة!
- أريد بيضًا مقليًا!
- خذ جزرة!
- أنا جائع.. ولن آخذ جزرة!

قالها زوجي بحزم.

- سأعد لكَ طبقًا من السلطة.
- وماذا أيضًا؟
- لا شيء، فقط سلطة! لقد عقدنا اتفاقًا!
- اتفقنا أن نجوع؟!
- لا، بل أن نكون نباتيين.
- أريد صحنًا من العدس، والفول، والبطاطس المقلية.
- نصف ساعة وستكون البطاطس جاهزة.

- والفول والعدس؟
- ليس لدي شيءٌ منهما الآن، كما أن إعدادهما سيأخذ وقتًا طويلًا، انتظرني بضع دقائق وستكون البطاطس جاهزة!

وبسرعة بدأت في تقشير البطاطس وتقطيعها، وأنا في حالة حنق وانزعاج! ثم بدأت في إلقائها في الزيت، وكلما أخرجت دفعة، اندفع الأولاد فالتهموها قبل أن تستقر في الطبق لثوانٍ معدودة! هل السبب في شعورهم بالجوع نفسي، نظرًا للقرارات الجديدة بتغيير نمط الحياة؟ قضيت أكثر من ساعة أنا والموقد، ولا بطاطس تستقر في طبق! واخيرًا نجحتُ في الاحتفاظ بقليل منها وتوجهت به مسرعةً نحو زوجي، فأخذ الطبق وهو يسألني:

- أين الفطور؟

وقبل أن أجيب، كان ثلاثتهم خلفي يسألون: «أين الفطور؟» اتصل زوجي على البواب وهو غاضب وطلب عشرين «ساندويش» له وللأولاد! ثم التفت إلي قائلًا:

- تغيير النمط ليس معناه أن نعاني الجوع لا بد من توفير البدائل!
- أعلم ذلك، لكننا لا زلنا في البداية، فلم أستطع توفير كل شيء.
- كان عليك توفير ما يلزم أولًا قبل البدء في تنفيذ الخطة!
- صحيح.

قلتها ولا أعلم إن كنت مقتنعة بما قاله أم قلته فقط لإنهاء الحوار. تركتهم في انتظار الطعام ودخلت المطبخ لأستعد مسبقًا للغداء قبل أن تتكرر المأساة. بدأت في إعداد وجبة نباتية متبعة كل التعليمات الموجودة على «جوجل» ليكون طعامًا لذيذًا وبعيدًا عن أي «روح». هل الروح بهذه الأهمية، حتى أن غيابها من الطعام يُفقده رونقه ولذته؟ نحن نحيا بلا روح معظم أيامنا، إن حياتنا تفتقد المعنى الحقيقي لها، هل الروح فحسب هي الفرق بيننا وبين الأموات؟ أم أنها الفرق بيننا وبين الجمادات؟ هل مهمتها فقط في إبقائنا أحياء، لا أعتقد.

إن الروح والشغف الذي أبحث عنه شيءٌ واحد. وصل الطعام، وكنت قد تناولت سبع جزرات وقررت أن أكتفي بهم، إلا أن زوجي دعاني لمشاركتهم إياه، وكانت رائحته أشهى من أن تقاوم! قضينا على جميع السندوتشات والمخللات والبطاطس المقلية، ثم عدنا جميعًا بظهورنا إلى الوراء بعد ما سرى فينا شعور بالثمالة غريب!

- متى سنمارس التمارين الرياضية؟

سألتهم بصوت كسل لا يقوى على تحريك إصبع قدميه!

- بعد الغذاء.

قالها زوجي وهو يفرد جسده على الأريكة، فقال أصغر الأبناء وهم يستعدون للدخول إلى أوكارهم:

- بعد العشاء!

انصرفت بعدها لاستكمال الغداء، وعندما انتهيت منه

وهممت بتنظيف المطبخ تذكرت أن الصبغة لا زالت على شعري! ركضت إلى الحمام ركضًا أسير على قلبي وليس قدمَيّ اللتين كانتا ترتجفان خوفًا من النتيجة! كيف لي أن أنساها فوق رأسي! لعل ذلك يرضيهم! قلتها ساخطة على من في البيت جميعًا، وعلى الإفطار والغداء وجميع الوجبات!

نزعت الغطاء برفق وخوف، أخشى المفاجأة! خاصة لأنني لا أريد أن أصدق هذا الهاجس الذي خطر لي عندما نظرت في المرآة، لقد كان المنظر كما لو كان البلاستيك منصهرًا قليلا! أزحته بتوجس، قلبي ينبض بطريقة غريبة، يا إلهي! ما هذه الخصلات البيضاء الملتصقة بالغطاء؟! إن لون شعري أسودٌ كليلٍ بهيم، من أين لي بهذه الشعيرات الغريبة! رفعت بصري أخيرًا نحو المرآة، لقد كانت «جدتي» هي من تقف أمامي، ليس في شبابها ولكن في أيامها الأخيرة على فراش المرض!

لم أكن أشبه «نانسي» من أي ناحية! لقد تحول شعري إلى اللون الأبيض الناصع، كما أنني فقدت جزءًا منه. لقد ذاب بفعل المادة الكيماوية! غسلته بدموعي وحزني، وأسرعت لأتدثر، أريد الاختباء مني ومنهم! وسؤال واحد يلح علي وبشدة: «ماذا أفعل في هذه المصيبة؟»

في غالب الأحيان، لا أتأثر بسوء المواقف ولا تزعزعني شدتها بسهولة، لكن ليس إلى هذا الحد الذي أفقد فيه شعري! لقد فقدت جزءًا كبيرا منه، أصبح قصيرًا وأبيضَ كما لو كنت سافرتُ إلى المستقبل عبر الزمن! قمت بحذر من تحت الغطاء، حان وقت المواجهة، لا

بد أن أجد حلًّا! أغلقت باب الغرفة بالمفتاح، ثم وقفت أمام المرآة، أريد تقييم الخسارة عن قرب وبدقة. تفقدْتُ الخصلات المتبقية منه، والتي كانت متقصفة ومتخشبة كأوراق شجرة في الخريف! الحل سيكون بمزيد من الكريم لإعادة الليونة إليه! كما ستكون بتغيير لونه، تبقى مشكلة اللون! من المستحيل وضع الصبغة على ما تبقى منه قبل اسبوع على الأقل، وإلا سأفقده عن بكرة أبيه! لا بد من تغيير اللون بشيء غير الصبغة،فما هو؟

- الحناء!

أجبت بسرعة وذكاء. لكن لا توجد حناء عندي! اتصلت على ابنة البواب، وطلبت منها أن تذهب إلى الصيدلية وتشتري لي عبوة حناء.

- نفس لون شعر» نانسي» يا «أبله»؟

أردتُ أن ألعن نانسي وألعنها في آن واحد، لكني ابتلعتُ جرعة غيظ وألم وقلت لها:

- لا، بل أريدها بلون بني.

أغلقت الهاتف وأنا أشرح لنفسي كيف أن اللون البني سيكسر حدة اللون الأبيض وينتج في النهاية لون «أصفر ذهبي» كلون شعر «نانسي»، كادت الدموع أن تتدحرج من عيني، وأنا أتذكر حلم الأمس وكيف كنت أغدو كغزال بشعر ذهبي اللون من سهل إلى جدول! أخذت أدندن رائعة الموسيقار محمد عبد الوهاب «الجندول « وأردد وأنا أنظر إلى نفسي من خلال المرآة: «ذهبي الشعر شرقي

السمات»!

لا بأس. كل شيء قابلٌ للتصحيح. ربطت رأسي بإيشارب كمن أصيب بصداع شديد، وفتحت باب الغرفة وتوجهت إلى حيث يجلس زوجي وجلست معه في انتظار الحناء.

- هل تعانين من الصداع؟
- نعم بشدة.
- من قلة الطعام.

رد في لا مبالاة!

- لقد تناولنا أكثر من عشرين «ساندويشًا» على الإفطار، أيُّ قلة تتحدث عنها!
- الشعور النفسي يضرم النار في النفس أكثر من الجوع الحقيقي!
- أها!

كانت هذه الثلاثة أحرف هي ما استطعت أن أنطق به، فذهني وقلبي مع ابنة البواب، أنتظرها بكل لهفة مستجيبة فقط لدغدغة الفضول، كيف سأبدو بعد وضع الحناء! دق قلبي مع جرس الباب، ركضت بلهفة، وأخذت منها الكيس دون أن أسألها عن ثمنه! أغلقت الباب وأسرعت إلى الحمام، مزجتها بالماء، وزعتها على شعري وغطيته بقبعة بلاستيكية، ثم خرجت لأجلس بجوار زوجي مرة أخرى..

- ما حكاية القبعات البلاستيكية اليوم ؟! هل هي جزء من

التغيير الاستراتيجي الذي حلّ بنا!

- مفاجأة!

قلت بكل ثقة، ثم أكملت:

- غيرت لون شعري!
- أخيرًا!

قالها وصدى صوت السرور يرن في أنحاء البيت..

- كل شيء له وقته.
- يبدو أن خطتك مثالية، فلم تتركي صغيرة ولا كبيرة إلا وقد أصابها التغيير.
- بلا فخر!

قلت ذلك وأنا ابتسم، ثم تابعت:

- متى سنقوم بالتمارين الرياضية؟
- في المساء، لقد قرأت ذات يوم أن القيام بالتمارين الرياضية ثم أخذ حمامٍ دافئ يساعدان على الاسترخاء والنوم بعمق.
- صحيح.

قلتها له وأنا في طريقي للحمام لغسل شعري من الحناء، فلن ألسع رأسي من نفس الجحر مرتين! رفعت الغطاء لكن اللون لم يظهر بوضوح بسبب الخليط السميك الذي يغطي شعري. كان الماء ينساب على رأسي معلنا الاستعداد للمرحلة الجديدة القادمة من حياتي، تركته يغسل شعري كما لو كنت أغسل الماضي وادعه يذهب مع الماء بعيدًا عني.

انتهيت من الاغتسال وأسرعت نحو المرآة، ما هذا المصباح الأحمر المضيء في الحمام؟ هذه أول مرة ألحظ وجوده! حركت رأسي لأرى المصباح، فتحرك بحركتي، تجمدت كل مشاعري عند الثانية التي أدركت فيها أنه ليس مصباحًا فسفوريًا مضيئًا، إنه أنا! لففت شعري بالإيشارب مرة أخرى وأسرعت باحثة عن كيس الحناء الفارغ. «بني محمر» مكتوبة بالخط العريض! لكن لم يكن هناك بنيٌّ في الأمر، كل ما هنالك هو «محمر» وليس مجرد احمرار عادي، إنه جمر مشتعل! شرر منصهر من حمية بركان كما أن اللون الأبيض ساهم في اشتعاله أكثر!

وللمرة الثانية أركض نحو السرير لأتدثر، أريد الاختباء مني ومنهم! ومن جديد، لابد أن هناك حل! لكل مصيبة مخرج! و سأجد المخرج هذه المرة أيضا، لكن علي أن أنتظر عدة أيام حتى يستريح شعري..

قمت من السرير متسللة كما لو كنتُ أخشى أن أقابل نفسي في الطريق للمرآة أو أن تجدني. أزحت غطاء الرأس وأمسكت بالمجفف حتى أرى اللون على حقيقته، جففت شعري الذي بدا مرهَقًا بفعل الصبغة والحناء. أريد ان أقيّم الكارثة. انتهيت من تجفيفه فوقف شامخًا فوق رأسي كسيقان البامبو الصفراء! إلا أن شعري بدا كسيقان بامبو «حمراء « لم أرى شعرًا مضيئًا من قبل! في هذه اللحظة تحديدًا فتح زوجي باب الغرفة ليطمئن، فحركتي الغريبة ذهابًا وإيابًا، الأغطية البلاستيكية وابنة البواب التي تدق

بابنا كل نصف ساعة حاملةً أكياسًا صغيرة أشعلت فضوله، فقرر أن يكتشف بنفسه ما يدور خلف الأبواب المغلقة. وقف على الباب ينظر إليّ مذهولًا جامدًا لا يتحرك!

- ما بك كأنما صعقتك الكهرباء!

نظر إلى شعري الأحمر الفسفوري المتوجه صوب السماء ثم قال:

- أخشى أنها صعقتك أنت!
- هههه.. مرح جدًا!

أجبته في استهزاء، فسألني بخبث:

- هل هذا اللون مخصص للنباتيين، «إجباري يعني»؟ أم أنه اختياري؟
- بل إجباري.

أجبته بلا مبالاة.

- هل سنمارس الطقوس الهندوسية بحذافيرها؟
- ألوان الصبغات تكون متوهجة في الساعات الأولى، لكن مع مرور الوقت تذهب حدة التوهج ويبقى اللون رائعًا جميلًا.

أجبته وأنا متأكدة من كذبي، لكن علي تهدئة الموقف حتى أستطيع أن أتصرف بدون ضغط.

- هذا بالنسبة للون، ماذا بخصوص نصف شعرك المفقود؟
- أسبوع على الأكثر، وسينمو من جديد!

- سينمو بأي لون؟
- ماذا تقصد؟
- أعني سينمو باللون الأسود أم الهندوسي، أقصد الأحمر؟
- سينمو باللون الأخضر!

قلتها وأنا أدفعه خارج الغرفة بهدوء، ثم تابعت:

- استعدوا لـفقرة الرياضة.

أغلقت الباب ووقفت مرة أخرى أمام المرآة. كادت الدموع أن تقفز من مقلتي، مثل تلك التي تنهمر من عيون الشخصيات الكرتونية مسببة شلالًا! لكنني تماسكت. فتحت علبة كريم جديدة ووضعت نصفها فوق رأسي فهبطت جميع الخصلات متشابكة متعانقة، كما لو كانت فقدت وعيها! ولم يزل رأسي متوهجًا وكأنني أحمل قنديلًا مشتعلًا فوقه!

مستحيل أن أخرج إليهم بهذا الشكل خاصة في أول يوم من أيام المرحلة الجديدة، بحثت عن قبعة «كاب» كنت قد ارتديته ذات صيف، وبدلت ملابسي بأخرى تناسب الفقرة الرياضية. خرجت إليهم وأنا أقفز في الهواء قفزات متتالية، كالتي يقوم بها لاعبي الكرة أثناء نزولهم إلى الملعب، وهي ما يطلق عليها تمارين الإحماء، وبدأت أدعو كل واحد باسمه، «هيا إلى غرفة الرياضة!»

كان زوجي كعادته أول الواصلين للغرفة، مرتديًا «شورت» قصيرًا جدًا وضيقًا، يحيط بأسفل بطنه. كاد أن يسقط منه. نظر إلى قبعتي الرياضية وقال:

- متى سنبدأ يا كابتن؟
- عندما يكتمل العدد. من فضلك اطلب منهم الحضور سريعًا!

تحرك في اتجاههم ولم تمر دقيقة حتى أتى بهم، لكنهم لم يكونوا مرتدين ملابس خاصة بالرياضة، بل أتى كل منهم بنفس ملابسه التي نام بها! قمتُ بتشغيل برنامج رياضي على شاشة التلفزيون مدته ساعة ونصف، وأخبرتهم بأننا سنتابع تعليمات المدرب بدقة، ثم بدأنا.

ساعة ونصف من الجري في المكان تمارين البطن، الضغط، وغيرها من التمارين. وكلما توقف أحد منهم في وسط التمرين نهرته ودفعته للمواصلة كما لو كنت «ملاحظ عمال» يحمل هرواته! ويضرب بها من يتوقف عن العمل للحظة، ولو كان لالتقاط أنفاسه! انتهت المدة المحددة للرياضة والتي أبيت أن تنقص عن قدرها دقيقة واحدة، علينا أن نأخذ أمورنا بجد وعزم! سقطت عني قبعتي أكثر من مرة، كنت ألتقطها بسرعة قبل أن ينتبه لها أحد، إلا أن عيونهم التي كانت مثبتة على رأسي وقتها، كقطة متعلقة بشجرة، أخبرتني أنهم لاحظوا مصابيحي الفسفورية التي أحاول عبثا أن أخفيها عنهم!

وبعد ساعة تقريبًا كان كل منا قد بدّل ملابسه بعدما أخذ حمامًا استعدادًا للغداء، والذي كان عبارة عن «خضار مسلوق» وسلطة. وضعت الطعام أمامهم، سحب كل واحد طبقه بحماس، فقد أنهكتهم التمارين الرياضية. كشف زوجي الغطاء عن الطعام وظل ممسكًا به للحظات وهو يتألم في صمت، سمعت صوت الـ«آه» المكتومة في أعماقه، نظر إليّ وهو يكظم غيظه ويتمنى من كل قلبه

لو ضربني بالغطاء على رأسي فأطفأ قنديلي الأحمر المتوهج، ثم قال:

- أين الغذاء؟
- ها هو أمامك، خضار.
- هل الأرز أصبح من الحيوانات، المكرونة، أما من أي شيء حقيقي يسد الجوع!
- لقد عقدنا اتفاقًا، الكربوهيدرات ممنوعة!
- لا أحب الخضروات.

قال أحد الأبناء.

- ستحبها عندما تعتادها.
- لا نريد أن نعتادها!

قال آخر.

- إنها مفيدة جدًا، وستلاحظون الفرق على بشرتكم وقوامكم.
- لسنا بناتًا!

قالها الأخير معلقا، ثم صمت قليلًا قبل أن يتابع كلامه:

- مالنا ومال البشرة والقوام والشعر الأحمر؟
- نزلت كلماته الأخيرة على رأسي كالمطرقة، لقد كان يقصدني، يسخر من لون شعري.
- ما له الشعر الأحمر؟!

سألتهم بتحفز. فرد زوجي سريعًا، حسمًا للخلاف:

- رائع، كأنه لم يُخلق إلا لك!

انسحب الأولاد رافضين حتى أن يتذوقوا الطعام! لم يحاولوا

مجرد محاولة! وعاد أبوهم بظهره إلى الوراء معلنا الاكتفاء. رفعت الأطباق وأعدتها للمطبخ وأنا أشعر وكأن عضلات جسدي مشدودة، والألم يعتصر كل مفصل من مفاصلي، هل التمارين الرياضية هي السبب؟ من المؤكد، فإننا لم نمارسها منذ سنوات كما أننا لم نبدأها بالتدريج.

خرجت من المطبخ على صوت زوجي يتألم:

- لا أستطيع الحركة، كلما حركت مفصلًا شعرت بوخز شديد!
- هذا من تأثير الرياضة، أجبته وأنا أشعر بنفس الوخز، جسدي يعتصر منه!

فجلست بجواره على الأريكة.

- أريد مسكنا للآلام.
- إنه في خزانة الأدوية.
- أعرف مكانه لكني لا أستطيع الحركة!

صمت وهو يضع يديه على ظهره ثم تابع:

- آه آه!
- أنا أيضا أشعر بنفس الألم. اذهب وأحضر مسكنًا لكلينا.
- أليست فكرتك؟
- نعم ولكني مرهقة جدًا، فأنا أعددت الطعام ونظفت المطبخ و.....

قاطعني بصوته المرتفع وهو ينادي على أحد الأولاد، غير

أنهم جميعًا أجابوا نفس الاجابة:

- لا نستطيع الحركة، الألم يعصر عظامنا وعضلاتنا!

وأخيرًا جاء أصغرهم وهو يزحف مستندًا على الحائط، وأحضر لنا المسكن، ثم قال لي والدموع تترقق في عينيه:

- أنا جائع!

خفق قلبي ألمًا لسماعه ولكن عنادي وإصراري على إنجاح التجربة دفعني لأن أقول:

- الطعام في المطبخ!
- لا أريد طعامًا من المطبخ، أريده من المطعم.

قالها وحبات الدموع الصغيرة تتلألأ على خديه، احتضنته بشدة، ولم يبق في وسعي غير أن أستجيب له فقلت:

- قل لأخيك أن يتصل بالمطعم ويطلب ما تشاء!

قفز من الفرحة ثم صرخ من الألم وتوجه مستندًا على نفس الحائط لغرفته. طلبوا عشاءً فاخرًا يليق بجوعهم وآلامهم، شاركناهم الطعام أنا وزوجي فقد كنا جوعى، وبصعوبة بالغة توجهت للسرير فقد كان يومًا شاقًا.

*****

إذا كنت أقص عليكم هذه القصة بالتفصيل فليس ذلك خشية ضياعها أو لكي تمارسوها يومًا ما، وإنما لكوني أتلذذ بأن أحياها من جديد وانا أرويها لكم، فبعض التجارب الفاشلة ممتعة، في أحداثها

وفيما تركته من ذكريات..

*****

لقد استيقظت ذلك اليوم معتقدة أن الآلام ستكون انتهت وأن شعري سيكون بنفس لون شعر «نانسي»! وأن أفراد أسرتي أصبحوا مغرمين بتناول الخضروات، لكن شيئا من ذلك لم يحدث! وها أنا ذا أروي لكم ما حدث بالتفصيل دون أن أزيف الحقيقة أو أحاول تجميلها، كم هو صعب أن أشرح لكم كيف أخفقت، رغم أني لا أقبل الهزيمة إلا أني مضطرة للاعتراف بها.

عليكم أن تعيشوا معي لحظات الفشل تلك وتستمتعوا بها، و أن تدركوا جيدًا أنني لا زلت حتى هذه اللحظة أرقد على سريري أتحرق شوقًا لإنقاذ خطتي وأستنفر كل جهودي لإتمامها على النحو الذي يرضيني.

كنت أهم أن أقف قبل أن تظهر صورتي أمامي في المرآة، وكأنها تتحداني وتعلن لي بكل ثقة ووضوح: إن شعري ما زال كـ«قنديل أم هاشم»! وأن قوامي لم ينقص جرامًا واحدًا، بل أعتقد أنني ازددت خمسة كيلو جرامات بعد الطعام الذي طلبناه بالأمس! غير أنه لم يكن لدي القدرة على الوقوف بشكل مستقيم فقد انحنى ظهري من شدة الألم. تحركت ببطء وتوجهت إليهم، فإذا بهم قد طلبوا إفطارًا من الخارج دون الرجوع إلي، وجلسوا يتناولونه في صمت، فقد كان الألم مصاحب لكل حركة.

جلست وسطهم في هدوء، ومددت يدي وأخذت شطيرة كبيرة فقد كنت أشعر بجوع يفتك بمعدتي! حاولت أن أخبرهم أن اليوم فقط مسموح بالطعام من الخارج لكوني متعبة، غير أني فضلت الصمت! كانت عيونهم معلقة بشعري دون تعليق، لكن الابتسامة المرسومة على الشفاه كانت تحمل تعليقاتهم المكتومة، وكأن الضحك انحسر في حناجرهم! قضينا بقية اليوم والأيام التي تلته في النوم وطلب الطعام، لم نقم بأي تمارين أخرى، فقد كان الألم أقوى من أن نتجاهله!

بعد مرور عدة أيام، اختفى الألم تدريجيًا، لكنني فشلت في استعادة خطتي، فقد سحبوا الموافقة التي أقروها قبل أيام، بل إنهم استغرقوا بالكلية في حالة الكسل! ممددين بالساعات على أسرتهم وإذا خرج أحدهم من غرفته استلقى على الأريكة بلا حراك! كأنه حيوان «الكسلان ثلاثي الإصبع»! كنت أعتقد -خاطئةً- قبل ذلك بكونه حيوانًا وهميًّا، إلى أن بحثت عنه في «جوجل»، يا الله كم يشبههم هذا المخلوق، لكأنهم أشقاؤه! فهذا الحيوان يُكرس حياته للكسل مثلهم تمامًا. لم أتخيل أن أحدا يمكنه النوم لأكثر من عشرين ساعة متواصلة كما يفغل أولادي وأبوهم وحيوان «الكسلان»! إنهم يفتقدون الإحساس بالبيئة المحيطة بهم، أنادي على كل واحد منهم أكثر من سبع مرات قبل أن ينتبه ويستجيب. أخرجهم من الغرف فيناموا في الصالة ممسكين بهواتفهم وكأنها التصقت بكفوفهم! ومما زاد الأمر سوءًا وجعلهم يشبهون «ثلاثي الاصبع» في كل شيء هو إغلاق

محلات «الحلاقة»!

مرت أيامنا متشابهة، لكن بصدري كانت تعتلج موجات الفشل التي كادت أن تغرقهم معي، كل يوم أستيقظ فيه وأنظر إلى شعري الأحمر وقوامي الذي يزداد بلا خجل! وأقرر فيه أن أفتح قضية التغيير مرة أخرى، أتذكر كيف أننا اضطررنا لشراء صالون جديد بعدما وجد زوجي صالوننا المكتوب في قائمة الأثاث مفروشًا في غرفة البواب!

اتصل بي زوجي من أسفل العمارة وأخبرني أن أنزل مسرعة، فنزلت، فإذ بدمعة تسيل على خده وهو واقف كالتمثال ينظر إلى غرفة البواب! وأنا كل ما أفعله هو ترديد عبارة واحدة: «ماذا حدث؟» كررتها أكثر من تسع مرات وزوجي لا يحرك ساكنًا، ثم أشار بإصبعه صوب الغرفة فنظرت لكن دون أن أنتبه إلى الصالون، كنت أرى كل شيء إلا هو! أمسك زوجي بمؤخرة رأسي وهو يدفعها للأمام، انظري بقلبك يا عديمة الإحساس أليس هناك ما يؤلمه؟

- أبناء البواب جوعى؟ سألته بسرعة.

فدفع رأسي للأمام أكثر وهو يهمس بغيظ في أذني:

- جوعى؟! لقد أعطيتهم طعامًا يكفيهم لستة أشهر، نحن الجوعى يا هانم! انظري جيدًا، ألا يلفت نظرك شيء؟
- ما هو؟
- علامَ يجلس ابن البواب وأمه؟

- الصالون!

قلتها كما لو كنت وجدتُ الحل للغز ما! دفع رأسي مرة أخيرة وأفلت يده وهو يقول:

- لقد خسرنا الصالون والطعام بفضل خطتك العظيمة!

هل كانت خطة سيئة؟ هل سبب فشلها عائد إلي، أم إلى انتحالهم شخصية حيوان «كسلان ثلاثي الاصبع»؟ لكنهم يأبون الاعتراف بأنهم ضد التغيير! سأتجاهلهم جميعًا وأهتم بنفسي، يجب أن أنقذها وبسرعة! لمعت عيناي مرة أخرى فركضت إلى غرفة نومي. ارتديتُ ملابس رياضية توحي بالانطلاق والشباب، اشتريتها يومًا من أجل رحلة تخييم لم أحظ بها في الواقع قط، لكنها كانت في عقلي بكل حذافيرها، ولذلك احتفظت بملابسها لعلي أقوم بها يومًا، فقد كان مجرد وجودها رمزا للعالم الذي أرغب بالتواجد فيه، موحية لي بالاستمتاع المفقود!

توجهت نحو باب الغرفة، فتحته بهدوء وأنا مثقلة بفشلي وبخطط وضعتها ولم أنفّذها أبدًا، وسرتُ حاملة بقايا أفكاري أتعرقل في تحليلاتي لأسباب الفشل المحتملة وغير المحتملة، ثم لسبب لا أعرفه عدتُ مرة أخرى إلى غرفتي، فتحت الخزانة وأخذت نظارة شمسية ووضعتها على عيني ونظرتُ في المرآة مرة أخرى. أبدو تمامًا كبطلة رواية «النظارة السوداء» غير أن شعرها لم يكن أحمر، وقوامها كان أنحف مني قليلًا. ثم تذكرتُ كيف كانت البطلة «ممتلئة» في صغرها وكيف أنها فقدت وزنها مع إنهاكها في الحياة دون أن تتعمد ذلك.

لقد أبدع «إحسان عبد القدوس» في الوصف والسرد رغم أنها رواية لا تمت للواقع العربي والشرقي بصلة، لكنه بمهارة جعلك تتقبلها وتراها جزءًا من نسيج المجتمع، لقد قرأتها كثيرًا مرات ومرات، وفشلت في كل مرة أن أسقطها على مجتمعي القريب كفشلي في خططي تمامًا! قد يكون السبب في شغفي بها كونها تحكي واقعًا غير مألوف كذلك الذي أطمع فيه..

«الواقع المرفوض» هو ما نحتاجه أحيانًا ونفتقده بشدة، كم من الأشياء المرفوضة غير المتقبلة في جوهرها، شيء ما يدعوك للاقتراب منها، شيء خفي وبقليل من التنقيب والتأمل يمكنك أن ترى كيف أنك بحاجة إلى سرقة بعضها على وجه السرعة، لتنقذ نفسك من مللها ورتابتها قبل أن يُقضى عليك!

ارتديت نظارتي وأزلت المشابك التي ثبتتُ بها شعري كي لا ينتفض وخللت أصابعي بين خصلاته ونفشته كي أغدو مثل الممثلة الأمريكية «فيولا ديفيس»! ولم يكذب شعري الخبر ولا إحساسي بالنجمة الشهيرة، فاتسع وازداد حجمه وانتشاره. ووضعت ما تبقى من ربع قلم الروج واخذت ما شذ عن شفتي وفركته في وجنتي، فبدا شعري وكأنه امتداد لوجهي أو العكس! وأخيرًا توجهت إلى حيث يجلس زوجي يشاهد مسلسله التركي، فهب واقفًا كما لو أن تيارًا كهربيًا سرى في جسده، فمه مفتوح لكنه لا ينطق! فعلى ما يبدو إن الحروف قد أصابها شلل على شفتيه المتجمدتين! لم ألتفت إليه، جلست مكانه، وبين يدي «صحن» مملوء بالكعك والبسكويت،

كنت ألتهم القطعة تلو الأخرى دون أي تأنيب لضميري! ثم أسندت ظهري للوراء ومددت ساقيّ في حالة استرخاء تام، راضيةً كل الرضا عن مظهري الذي يتلائم مع حالة «الحظر»!

(٢)

تناول عشاءه للمرة السادسة على التوالي في هذه الليلة التي أبت أن تنتهي. ماذا يحدث؟ سأل نفسه، وشعورٌ بالضجر يملأ صدره، كأن الوقت أقسم ألا يمر، ورغم أنه يتناول العشاء كل ساعتين تقريبًا! إلا أن ذلك لم يُجدي معه نفعًا ولم يدفع الساعات للمرور ولم يساهم في إنهاء هذه الليالي الطويلة.

فتح هاتفه وأخذ يبحث عن أصدقائه المتصلين، أصدقاء العمل، أصدقاء قدامى، أو حتى أصدقاء الأصدقاء، لا أحد يبدو متصلًا في هذه اللحظة، يبدو أنهم يتناولون عشاءهم في وقت واحد تقريبًا لذلك اختفوا جميعًا! لا أجيد لعبة المزرعة السعيدة ولا «البابجي»، أجيد لعب «الطاولة»، «والشطرنج» والكوتشينة فقط.

انتقل من «فيس بوك» إلى «تويتر»، ثم غادره سريعًا وحاول أن يرسل بعض الرسائل لأقاربه على «الواتساب»، لكن لا حياة لمن تنادي! عاد مرة أخرى إلى «الفيس بوك» وكتب منشورًا مثيرًا للجدل غير مقتنع به ولا يمثل رأيه أصلًا، لكنه يحاول إثارة البعض للدخول معه في حالة جدال للتسلية وإضاعة الوقت فقط!

وبعد مرور أقل من دقيقة حصل على أول إعجاب لمنشوره البائس من «جروح»! انتبه الآن لكون هذا الحساب يتابعه بدقة، فلم يترك منشورًا إلا وسجل إعجابه به، وكذلك بعض التعليقات من وقت

لآخر، بدأ يراجع منشوراته وفي كل منشور كانت «جروح» واحدة ممن استخدم إيموجي «😍»! كيف لم ينتبه لها؟ بدأ ذهنه يعمل بسرعة الصاروخ، وطفقت هرمونات التخيل تتدفق من كل وجدًانه! من المؤكد أنها معجبة به، لا أعتقد أن الأمر تخطى الإعجاب وإلا لما استخدمت إيموجي الحب!

كيف تجاهلتُ مشاعرها إلى هذا الحد الذي جعلها تغيير اسمها إلى اسم متعب وحزين بهذا القدر؟! «جروح»، «سأل نفسه»، ثم ردد في همس «آه يا قلبي المنفطر»! فتح صفحتها الشخصية وبدأ يتفقدها بدقة. الاسم: «جروح «. آسف حبيبتي! الحالة: معقدة. لا بد أن تكوني معقدة طبعًا، وأنا مثل الأحمق لم أنتبه إليكِ طوال هذه المدة! درسَت في «مدرسة الحياة».

حاول أن يعرف أكثر عنها، لكن المعلومات لم تكن متوفرة، لفت نظره أن كل منشوراتها حزينة! أراد أن يعتذر لها عن تجاهله غير المقصود وهو يعدها: «أقسِمُ بمن ساقكِ إلى طريقي الآن لأعوضنك عن كل جرح ولأُبدِلنّ أحزانكِ أفراحًا «! لا بد أنه سبب لها صدمة عنيفة عندما رأت صدوده وإعراضه! فتح تطبيق الأغنيات على هاتفه واختار أغنية لعمرو دياب يعاتب فيها قلبه قائلًا: «إيه بس اللي رماك تعشق تاني يا قلبي»! ثم اتخذ قرارا بإلقاء التحية، «يكفي ما مضى من عمرنا في البعاد!» فكتب: «السلام عليكم، تحياتي لكِ».

لكنها لم تفتح الرسالة بعد، أخذ يتأمل صورة الصفحة الشخصية، ما أجملها وما أرق ملامحها! إنها صورة إحدى الفنانات

الأتراك، لكن من المؤكد أنها تشبهها كثيرًا! أكل هذا الجمال يسمى: «جروح»! لماذا لم تفتح رسالتي حتى الآن رغم إنها متصلة! كيف طاوعتني نفسي على تجاهلها وإيذاء مشاعرها!

الأغنية صوتها لا زال عاليًا يتردد في أذنيه، فلم ينتبه لزوجته التي سألته ثلاث مرات: «هل تريد أن تأكل للمرة السابعة؟» مما دفعها لأن تهزه بيديها! كانت الهزة مفاجئة فانتبه لصراخها ورد مذعورًا:

- ماذا حدث؟
- أسألك إن كنت تريد أن تأكل!
- لا، فأنا أشعر بالشبع.

أراد أن يقول: «بل بالامتلاء! وكأنني لم أخلق للطعام والشراب وما يتناوله البشر ليعيشوا! بل إنني أعيش على الحب! إنني مكتفٍ بها»!

نظرت زوجته بدهشة لملامحه التي بدت غريبة وهي في حيرة من أمر شبعه الطارئ، فقد كان يتناول عشاءه تسعة مرات في الليلة الواحدة، وأحيانًا أكثر! ما به اليوم يكتفي بستة مرات فقط! ثم تركته وانصرفت..

لم تفتح «جروح» الرسالة بعد، ترى فيمَ أنتِ مشغولة يا مهجة القلب؟ هل هناك أحد غيري في حياتك! ماذا! لا، لا بد أن أخبرها منذ البداية أني رجل غيور! سأطلب منها أن تلغي الخاص وأن تغير صورتها الجميلة وأن تستبدلها بصورة «زهور». ثم فكر قليلًا،

وقال في نفسه: ولا حتى زهور، حتى لا يطمع الذي في قلبه مرض! فلتستبدلها بآية قرآنية أو دعاء أفضل.. لكن لماذا لم تفتح الرسالة إلى الآن؟ ألم ترها بعد؟ هل أُرسل لها مرة أخرى! سأرسل لها إيموجي الانتظار. دار هذا الحديث بينه وبين نفسه..

مرت ساعة لكنها لم ترد بعد، ومن بعدها مرت ساعة أخرى وجروح لا تبالي لجروحه! هل تعاقبه على تجاهلها طوال الفترة الماضية!

فجأة وجد زوجته مرة أخرى تصرخ وتسأله: ألا تريد شيئًا تأكله؟ كاد أن يقتلها من غضبه! «هل الحياة كلها أكل؟! لقد وأدنا مشاعرنا وأشواقنا في حفرة الطعام والشراب! إن آخر ما أفكر به الآن هو الطعام، فقلبي يدق ومشاعري تتدفق حنينًا وتأتي هذه لتحدثني عن الأكل! كيف أشرح لها أن الأكل ليس هدفا في حد ذاته، وأن العالم به أشياء أخرى كثيرة مهمة غير الأكل»!

- أرجوكِ.. لا تأتي بسيرة الطعام مرة أخرى!

انصرفت زوجته عنه وهي مشغولة عليه، هل أصابه مس؟ لمْ يرفض طعامًا منذ تزوجها، وخاصة منذ بدأت هذه الجائحة التي عزلت البيوت، كاد أن يأكلها! أما هو فقد عاد لـ «جروح»، وهو يأخذ قرارًا بتنظيم طعامه، حتى يسترد لياقته، وبأنه سيذهب للصالة الرياضية، وسيحمل الأثقال ليبرز عضلاته، وأخيرًا فتحت روح الروح الرسالة وقرأتها. آه يا قلبي، كم تدق بلهفة وشوق! وأنت تشاهدها تكتب! سترد الآن! هل اطلب منها موعدًا؟ أم أكتفي بالتعارف على

الشات لفترة أولا؟ وأخيرا أرسلت الرد:

«وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أنا من أشد المعجبين بصفحة حضرتك، أتابع كل كلمة تكتبها، وأحترم رأيك، وكأنه يعبر عني تمامًا، وزادت سعادتي برسالتك الآن، وأود أن أنال شرف معرفتك، أخوك أدهم من اليمن»

عندما وصل إلى نهاية الرسالة، رفع رأسه وصوته مناديًا على زوجته: أنا جاااااائع، أين العشاء السابع؟!

(٣)

لم يمنع جهاز التنفس الصناعي دموعها من التدفق بغزارة، تشق طريقها عبر أخدود رقيق حفرته باستمرارها وإصرارها على الانهمار بشكل متواصل. كيف لا تبكي؟! وما الذي يمكنها فعله غير البكاء؟ تعلم أنه لن يهدئ من روعها ولن يطمئنها على صغارها، ولكنه يخفف عنها على أي حال! تلك الدموع تصف لهفتها واشتياقها لصغارها الذين حالت بينهم وبين أمهم «الكورونا»! تبكي بحرقة لعلمها بحالهم في غيابها، إنهم يبحثون عنها في كل الوجوه، ويتلمسون الدفء في أحضان الغرباء ولكنهم لن يجدوه! تدرك تمامًا أنهم لن يناموا قبل أن تنظر في عيني كل منهم وتبتسم له ابتسامة تخبره أن غدًا أفضل! تدرك أنهم لن يأكلوا طعامًا لم تعده بيديها ولم تضعه في فم كل منهم بنفسها! حتى إن الفترة القصيرة التي اضطرت فيها للخروج إلى العمل قبل إصابتها مباشرة بالفيروس، كانت تعود من العمل لتجدهم على نفس الحالة التي تركتهم عليها غير أن عيونهم قد انتفخت من البكاء شوقًا إليها، تحتضنهم وتطعمهم، ثم تأخذ كل واحد منهم للاغتسال قبل النوم، ثم تغتسل وتدلف وسطهم على السرير تحكي لهم قصصًا مختلفة عن سعادة وهمية تنتظرهم وعن مستقبل يلمع في عيونهم وحدهم، ومنطفئ في قلوب العالمين!

كانت تحكي لهم عن والدهم البطل. لا بد أن يكون والدهم

بطلًا! فمن بعده خرجت أمهم للعمل وتركتهم. كم كان حنونًا فأحبهم بكل ما أوتي من عُمر ومن صدق! كان يأتي لهم بالحلوى ويأخذهم لتناول الطعام بالخارج. كانت حياتهم ملكًا لهم لا يتدخل فيها أحد. أما الآن؛ فالكل عيّن نفسه نقيبًا عليها ووصيًا خاصًا. كانت تذرف الدموع والحروف لتؤكد لهم أن ما هم فيه الآن هو وضع مؤقت، وأن الحياة ستحلو يوما ما...!

ثم وبعد كل ما عانته تظهر لها أعراض هذا الفيروس الكئيب، الذي أصبح موضوع حديث كل الناس في الأشهر الأخيرة! قبل ذلك كان الحديث عن مرض السرطان يعني النهاية، فجاء فيروس «كورونا» الغريب بحالة عجيبة فرضها على العالم أجمع! الكل يخشاه ويحس أنه محيط به كما الموت! نعم؛ إنه كملك الموت يحوم حولنا ليلًا ونهارًا، لكن على هيئة فيروس يحصد من آنت ساعته وأتى أجله! وفي المستشفى، يكون التشخيص بكل بساطة وتعاسة: «كورونا»!

منذ دخولها المستشفى لا تسأل الله إلا أن تعود لها عافيتها لأجل أطفالها. الأطباء لا يسمحون لها برؤيتهم ولا تعلم هي عنهم شيئًا! إن كيانها ليرتجف شوقا لهم، وإن كل حواسها لتتركها وتذهب ركضًا إليهم! تحوم حولهم وتحميهم من الدنيا ومن الناس، تتمنى لو ينبت الله لها جناحين تبسطهما حيث أولادها يجلسون فتخفيهم عن عيون المارين والعابثين!

سالت دمعة أحرقت خدها وهي تتذكر ابتسامة طفلها الصغير، ملاكها الذي لم يبلغ من العمر عامًا واحدًا! تتذكره حين كان

يلقاها كل ليلة بعد عودتها من العمل لا يستطيع المشي، ولكنه يقفز جالسًا في مكانه ويحرك يديه في الهواء ويصدر أصواتًا تنم عن فرحته بعودتها! يدعوها لحمله، فقد اكتفى من فراغ قلبه طيلة نهار كانت فيه بعيدة عنه. يمسح بوجهه وبكفيه الصغيرتين وجهها ليتأكد أنها هي، وأنها صارت بقربه أخيرًا، ثم يدفن رأسه في صدرها. إنها تمثل كلَّ عالمه!

كانت تحت جهاز التنفس الصناعي، لا تزال تبكي بحرقة، تبتهل إلى الله أن تعود إلى صغارها، حين لفت انتباهها حركة غريبة وقوية، على غير العادة، خارج غرفتها بقسم العزل بالمستشفى. ترى هل تنزع الجهاز وتقوم لتتفقد ما يحدث؟ لكنها تشعر باختناق شديد، اختناق ليس سببه «الكورونا» باختناق كما لو كان دخانا،حتى أن الرؤية قلت ولم تعد قادرة على فتح عينيها! تأخذها غيمة أخرى من غيمات الدخان تلفها تدثرها بثوب شفاف لكنه جارح مخيف! لا ليس ثوبا، إنه دخان أسود كثيف يملأ صدرها! تشعر أنها عاجزة عن المقاومة! ما الذي ينتظرها وهل ستعود لأولادها يوما ما...!

وقبل أن تجيب على تساؤلاتها كانت قد تحولت إلى خبر عاجل تناقلته شاشات التلفاز ووكالات الأخبار:

«حريقٌ هائلٌ يتسبب في مصرع سبعة أشخاص بقسم العزل في مستشفى بدرواي بالإسكندرية»

(٤)

«متى سيعود أبي؟»

أيقظها سؤال الطفل الواقف أمامها من متاهة أفكارها!

ردت وهي تبتسم في حزن واضح:

- قريبًا يعود، بمجرد أن يتم شفائه.
- أنا أكره هذه الكورونا التي حبستنا في المنزل ومنعتنا من رؤية أبي.

سكت لحظة ثم تابع:

- أريد الذهاب للشاطيء!
- عندما يزول الوباء ويعود أبوك، سنذهب جميعًا!
- ماذا يعني «يزول»؟
- يعني ينتهي الوباء الذي تكرهه يا حبيبي.

فتح الصغير فمه، يريد أن يسجل اعتراضًا على كلام والدته وعلى الكورونا ومرض أبيه، فقد اعتقد أن الحياة أكبر من أن يتحكم فيها فيروس حقير! لعل سنوات عمره الثمانية لم تلقنه الدروس بعد. لا زال يرسم في مخيلته عالمًا ورديًا من حدائق وشواطئ وألعاب وضحكات متناثرة من أفواههم وأفراح مبعثرة من قلوبهم تطرح حولهم ألوانًا من البهجة! إن الحياة لم تلبس ثوبها القاتم في مخيلته

بعد! لا زالت ترتدي فستانها الوردي وعلى أكتفاها فراشات صغيرة جميلة!

أدار ظهره لوالدته كما لو كان يدير ظهره للعالم أجمع احتجاجًا! ورغم صغر سنه، فإنه يعلم تمام العلم أن لا ذنب لوالدته، فما يحدث أكبر منها هي أيضًا، لكنهم اعتادوا أن يحملوها ذنوب ونتائج الكوارث وخيبات الحياة المتلاحقة، لمجرد أنها موجودة معهم! أراد أمس أن يطلب طعامًا من الخارج لكنها رفضت وهمست له وهي تحتضنه: «عندما يعود أبوك». هل تخشى أمي شيئًا؟ حروفها التي ترتجف والدموع التي تقاومها كي لا تفر من مقلتيها، لماذا تحبسها أمي؟ ألا يكفي أننا وأبي محبوسون!

إن أمي لا تحاف! هكذا حدث نفسه. إنها أقوى امرأة. لا، بل هي أقوى مخلوق! كلنا نجري إليها، حتى أبي كان يهرع إليها خائفًا! وما هي إلا لحظات حتى يعود آمنا هادئًا كبحيرة لم تجرب الأمواج حظها فيها أبدًا! ولكن أبي لم يعد ولم يحضر لنا الطعام! ماذا لو لم يأت أبي؟! ماذا إذا بقيت الكورونا لأعوام أخرى! من أين سنحصل على طعامنا؟ هل سنواجه الجوع والخوف والمرض وحدنا دون أبي! ألا تعلم الـ»كورونا» أننا نحتمي في أبي وأنه هو من يحضر لنا الطعام!

كاد يميل برأسه على وسادة الأريكة حين وصل إلى سمعه صوت بكاء أخيه. هل يبكي بسبب الجوع؟ هل نفد كل طعامنا؟ لماذا تجلس أمي متدثرة بالبطانية لا تجيبه ولا ترد بحرف واحد يسكته؟! إنها شاردة في اللا شيء! هل ستمرض أمي أيضا؟ هل ستذهب هي

الأخرى للعزل في المستشفى عند أبي وتتركني وأخي وحدنا؟! لكن ماذا سنفعل وقتها؟ أرجوك يا أمي لا تمرضي! تماسكي من أجلي ومن أجل أخي! فنحن بحاجة إليك أكثر من أبي! أنا يا أمي ضعيف لا أستطيع الاعتناء بأخي وحدي! لكن أعدك إذا بقيتِ أن أعتني بك وبأخي في وجود أنفاسك التي تغمرني ويديك تمسحان على رأسي! إنك تمتنعين عن تناول الطعام لتوفريه لنا، لا بد أن تهتمي بصحتك، فنحن بحاجة لوجودك صامدة في قربنا! هل أنت متعبة يا أمي؟ أراد أن يسألها، وأراد أن يعرف سر بكاء أخيه المتواصل، لكن جفنيه يثقلان بشدة ويزوغ بصره مترنحًا بين أمه وأخيه!

الأخبار في التلفاز تؤكد على تفشي الوباء بصورة كارثية، وأن الكثير من مقومات الحياة اختفت بعد أن حطم الناس المحال التجارية ولجؤوا لسرقة كل المواد الغذائية، أما نحن فلم نستطع أن ندخر شيئًا ولا حتى أن نسرق كما سرقوا! وأبي لم يعد ولم يحضر لنا الطعام. توقفت الحياة وتركت الدولة كل فرد يدبر أمر نفسه وخرجت الأمور عن السيطرة في العالم كله. ولم يعد الجوع حكرًا على دولة دون أخرى. أما داخل البيوت فقد كانت أصوات البطون أعلى من كل صوت! أطفال جوعى وآباء يتضرعون للخالق أن يلهمهم الصبر والرزق في آن واحد.

أعتقد أن أمي تأخذ وضع السكون توفيرًا لطاقتها، فإن كل ما يشغلها هو كيف تبقينا أحياء. حتى أنها لا تنام! أشعر بها وهي تتقلب بحذر من وقت لآخر حتى لا توقظنا فقد أصبحنا ننام أنا

وأخي وهي معًا طلبًا للدفء والأمان. وإذا ما غفت لثوانٍ، أسمعها تتمتم بكلمات باكية غير مفهومة، كأنها تأنّ وتشكو ضعف قوتها وقلة حيلتها، كأنها تدعو الله أن يُعينها ويقوي ظهرها لأن أبي لم يعد ولم يحضر لنا الطعام...!

أنا جائع! ليس بطني فقط، بل إن قلبي أيضًا جائع. لم يخبرني أبي قبل أن يذهب أن القلب أيضًا يجوع. تغلي أمي الماء وتضيف إليه قليلًا من السكر لتطعمنا إياه فتحافظ على طاقتنا أطول فترة ممكنة، خشية أن ينهار أحدنا! منذ أيام طبخت لنا آخر ما تبقى من دقيق مع قليل من الماء والسكر. وكم كان شهيًّا! لقد شعرنا بالدفء بعدها، ونمنا كما لم ننم من قبل! لكن أبي لم يأكل معنا فهو لم يعد ولم يحضر لنا الطعام كما كان يفعل طويلًا!

وأثناء استغراقه في أفكاره ونومه على الأريكة، سمع صوتًا ينقر على الشباك. أيعقل أن يكون عصفورًا؟ هل لا زالت هناك طيور على قيد الحياة، أم أن هذا الناجي الوحيد من هذه الجائحة؟ فقد أخبرتنا أمي أنه لم يعد هناك طيور ولا حيوانات على قيد الحياة! لقد ذبحها الناس وأكلوها من فرط الجوع! كانت تحكي لنا كيف أمسك الجيران بهرٍ صغير وذبحوه وأعدوا منه وليمة عظيمة، كما لو كانت تكشف عن رغبتها في فعل ذلك! آه يا أبي لو كنت موجودًا! لكنه لم يأت..

قمت بحذر نحو الشباك لأعرف ماهية الطائر. إنها حمامة

هزيلة جدًا ويبدو أنها لا تقوى على الطيران فحطت على شباكنا بعد أن أنهكها التعب. لكنها تبقى في النهاية حمامة، يعني وجبة لحم ومرقٍ شهي! وقرة عين لي ولأمي وأخي! علي أن أمسك بها بحرص حتى لا تفر هاربة. علي أن أضع خطة محكمة للإمساك بها. نظر لوالدته وهي تجلس في ضعف شاردة، تنظر للأرض بحثًا عن شيء لا يعرفه ويعتقد أنها أيضًا لا تعرفه! سأمسكها يا أمي سنحتفل هذه الليلة معًا بوجبة لذيذة! نظر إلى أخيه الباكي وقلبه يطمئنه قائلًا: اِنتظر فقط لبضع دقائق وستأكل حتى تنام قرير العين..

دخل إلى المطبخ وعاد بكرتونة صغيرة، فقد قرر أن يقلب الكرتونة على الحمامة فجأة حتى يمنعها من الطيران، ثم يمد يده داخلها ويمسك بها. وفعلًا فتح جزءًا من الشباك يتسع للكرتونة الصغيرة حتى لا يذعر الطائر ويهرب، وبسرعة البرق حرك يده ليقلب الكرتونة على الطائر، فارتطمت يده بخشب الطاولة التي ينام بجوارها على الأريكة، ثم وقع على الأرض! أسرعت إليه أمه لتحمله وتطمئن عليه، ثم همست في أذنه أن والده بخير وسيعود قريبًا جدًا للبيت. سألها:

- والطعام، المجاعة؟!

صمت لحظة ثم قال:

لقد كان حلمًا! سيعود أبي وسيحضر لنا الطعام..

(٥)

آخر ما توقعت أن أكتب له هو «أنت»! لم أكتبها اشتياقًا لك، ولا رغبة في العودة إلى ذلك المقعد المتهالك أمام طاولة خشبية أشد تهالكًا، ولا حتى رغبة في «كوب الشاي» ولا زجاجة المياه الغازية التي يدعي صبيك دومًا أنها باردة، ولا اشتياقًا لرائحة الدخان المنبعث من فوهة «الشيشة» التي تزداد غضبًا واشتعالًا مع كل نفس حائر متمرد! هل كان أحد ليتخيل أني في هذا العزل أكتب رسالتي الأولى لـ«المقهى» لا أحد سيدرك أن ما بيننا يستحق أن أكتب عنه أو له!

عجيب ذلك القدر الذي استجاب لأمنيتي على عجلٍ! لا أدري أكنت سعيدًا أم حزينًا، ولكنها كانت رغبتي الملحة في الفترة الأخيرة. لقد سئمت الناس، الشوارع، البيوت، حتى تقلبات الطقس كانت تحمل لي مزيدًا من الاكتئاب! أبحث عن صدى ضحكة، ابتسامة، لا شيء غير الحزن والهم يملأ قلوب الناس. في الفترة الأخيرة أصبحت متمرسًا في قراءة الوجوه، أو لعل الوجوه لم تعد تستطيع أن تخفي ما بداخلها! أجلس على مقعدي المحدد في تلك القهوة الصغيرة البائسة (كحالي تمامًا)، أتفقد ملامح العابسين الجالسين، والتعساء من المارة يسيرون بسرعة ويصطدم بعضهم ببعض ثم يتابعون السير بلا اعتذار! وكأنه أصبح من الطبيعي أن يترنح كل منهم فوق كتف الآخر كسعف النخيل في تمايله. عجبًا! إنهم يشبهون شجرته، فهم صابرون صامدون،

كما قال الشاعر العراقي «عبد السلام بركات زريق»:

حزينةٌ كنخلةِ العراق يا عصفورةَ المطرْ

تهجرُها نساؤُها

يغتالُها أبناؤُها

تغتابُها أفياؤُها

هم كذلك يحيون رغمًا عن أنف الحياة ذاتها، كان جلوسي لفترات طويلة في زاويتك المفضلة عندي، حالة من حالَات التأمل والانفراد بها. كانت رفيقتي الوحيدة عندما أجلس على مقعدي فيك صباحًا، وبسرعة أرسل لمحبوبتي: «صباح الخير» حتى لو كانت نائمة، أعلم أنها لم تستيقظ بعد، ولكن الخير كل الخير في صباحٍ هي جزء منه! أنتظرها وأنقل لها كل ما يدور حولي، أرسل لها وأنا أعلم أنها لن ترد! أرسل لها حتى وأنا موقن أن رسائلي لن تصل، أشرح لها كل التفاصيل في خيالي، أجلس في مكاني في الزاوية وأبدًا في الحديث معها؛ أنا والمقعد والمقهى وهي، لذلك قررت أن أرسل لكِ يا صديقتي لعلك تُطمئني مقعدي وتطمئني محبوبتي، فليس بمقدوري أن أرسل لها وأنا أعاني قسوة العزل والبعد.

لم يخطر ببالي حينما كتبت تلك التغريدة منذ عدة أيام على «تويتر»:

«وأقصى طموحي الآن هو عزلة طويلة، أنا وقلبي، ودفتري وقلمي وطيفها»

لم يخطر ببالي حينئذ أن رغبتي ستتحقق بهذه السرعة! لذلك أنا لست آسفًا على مرضي ولا ساخطًا على «الكورونا»، فإنها لم تفعل أمرًا غير الذي كنت أطلبه! ولذلك فقد كان لزامًا أن أرسل إليك لعلك تفتقديني، تبحثين عن وجهي بين وجوه الجالسين، تسألين أين ذهب صاحب الوجه الحزين والقلب الشارد!

أنا هنا في خير حال، أعاني آلامًا في جسدي كله، لكنها مثل تلك التي كنت أعاني منها على مقعدك البالي! أشعر وكأنني أتنفس من ثقب إبرة، ولكنه مشابه جدًا لتلك الحالة التي كنت أتمزق فيها إلى قطعٍ وأتبعثر أشلاء على أرضك، ولا يرى أحدٌ ما بداخلي! كنت أفقد القدرة على التنفس مرارًا أمام زجاجة المياة الغازية التي ترقص رقصة الموت أمام عينَيّ في كل مرة أضعها أمامي وأتركها حتى تصير ساخنة ثم أطلب تغييرها.

آه لا تنسي أن تبلغي تحياتي وسلامي لذلك الصبي الباسم الذي كان يحمل الطلبات إلي، فقد تحمل تقلبات مزاجي وسوء أخلاقي وانفلات أعصابي! كنت أطلب منه تغيير الشاي الذي تركته حتى يبرد، والمياه التي نسيتها حتى أصبحت ساخنة، وكان يقف أمامي يسألني عما أريد وأنا شارد في عالم آخر. فيسألني مرة أخرى:

- ماذا تريد يا (بيه)؟

وأنا أنظر إليه ولا أجيب! لم أكن أسمعه، لم أكن أسمع إلا صوتها يتردد داخلي فيختفي أي صوت أخر. وعندما يسألني للمرة الرابعة يفقد أعصابه قائلا:

- رد يا بيه!

فأرد الرد المعتاد:

- ماذا تريد؟

فيرد حانقًا:

- بل أنت ماذا تريد؟

بلغيه سلامي، لعلّه قد ارتاح مني لفترة، ولعلّه ارتاح للأبد! لا أعلم حتى الأن هل سأعود يومًا لبقعتي المظلمة، وهل لا زال في العمر بقية أم لا! ولا تنسي أن تقرئي مني السلام كل زبائنك الذين تجاهلتهم دومًا عن قصد أو بدونه، عن تجاهلي للرد عليهم في أحيان كثيرة، فقد كان داخلي في حالة حرب مستمرة. وأخيرًا قولي للجميع أني بخير، حتى وإن لم أكن كذلك! فالعزلة كانت رغبتي والألم صديقي. يحوم طيفها ويرفرف حولي.

أنا هنا، حيث لا أحد يقطع فيض تأملاتي ليسألني: «ماذا تشرب يابيه؟»

أنا هنا حيث لا أحد يسخر من عزلتي ولا من شرودي، فكل من هنا كذلك!

(٦)

هل رأيتم يومًا شخصًا يحارب نفسه وكل ما حوله لالتقاط أنفاسه الأخيرة؟ نظرات الفزع في عينيه وهو يختنق بعدما عجز عن التنفس! قد يكون بعضكم صادف هذا الأمر، أما الذين لم يسبق لهم أن يعيشوا ذلك الموقف فغالبًا لن يفهموا ما أقصده..

أنا لا أشعر بالموت فقط، صدقوني، إن الأمر أكبر من ذلك بكثير! فالموت لم يعد شبحًا، ولا زائرًا حتى، بل نحن جميعًا هنا في ضيافته! هو من يقرر ويحدد من يبقى ومن يغادر! أما أنا فكل ما أريده هو نسيان كل تلك الوجوه التي غيَّبها! كيف أنساها وكل وجه منهم لم يذهب إلا بعد أن ترك بصمته داخل روحي! ملامحهم وهم يستجدون الموت أن يؤجلهم ولو للحظات! أقسم أن استجدَّائهم لم يكن من أجل أنفسهم، لقد كان من أجل ذويهم! فالحياة أوجعتنا بما يكفي حتى أننا أصبحنا نملُّ وجودنا على ظهرها! وصار لا يسعني أن أنزع من داخلي صوت الحشرجة الأخيرة للمرضى، وأنفاسهم الأخيرة تضيق عليهم وتحاصرهم، ونظراتهم تزوغ في عيوننا تعلن بكل قسوة ووضوح: إنها النهاية!

لقد عملت في مهنة الطب لمدة ٣٠ عامًا، ظننت خلالها أني رأيت كل شيء يمكن رؤيته في عالم الطب، إلا أن التعامل مع فيروس كورونا واستقبال الناس له والفزع الذي يسببه كان أصعب من كل ما

مررت به في مسيرتي المهنية! الآن، فأنا الآن أرقد أسيرَ جهاز التنفس الصناعي، أشعر بضيق كما لو كان لحدًا يضمني، يعانقني بقوة، يتراءى أمام عيني شبح طبيبي المعالج! ابتسم داخلي من شدة البكاء وأنا أشاهد «البالطو» الأبيض والسماعة المعلقة على رقبته، وأتذكر أين كنت قبل هذه الأيام بقليل.

كنت في مستشفى آخر للعزل ولكن بصفتي طبيب لا مريض كما الحال عليه الآن! كنت على يقين تام بأن المرض لن يتركني وشأني، خاصة بعد مخالطتي لحالًات الإصابة. كان هناك مريض يبلغ من العمر حوالي ستين عامًا، رأيته وهو يحتضر، حين بدأ جهازه التنفسي في الانهيار، تم استدعائي لمحاولة إنقاذه. هرعت إليه مسرعًا! فتجمعنا صداقة عمرها بضعة أيام. كنت أتابع حالته بداية من ليلة الخميس التي وصل فيها إلينا، كان متأكدًا أنه لن يغادر المستشفى وهو على قيد الحياة، وبكلمات قليلة جدًا استطاع أن يغافل جهاز التنفس ورئتيه اللتين عجزتا تمامًا عن التنفس! أن يعطيني نبذة عن حياته التي فيما أعتقد أنها كانت ملكًا للآخرين، لا له! حتى أمنيته الوحيدة للشفاء كانت ليزوج ابنته الصغرى، رغم أنها وكما أخبرني لا ينقصها سواه. وأنه لا يريد أن يكسر فرحتها يوم عرسها!

كانت هذه مهمتي، وقد أقسمت أن أؤديها بحق، لكن القدر خانني في لحظة قهر غير متوقعة! كنت أبكي أنا وطاقم التمريض وطبيب التخدير حين وقفنا جميعًا عاجزين عن مساعدته! كان يحشد كل ما تبقى لديه من أمل في الحياة في محاولة لأخذ نفس

واحد! فقط ظلت نظرة الفزع التي كانت في عينيه عالقةً في ذهني!

هل تراني استفقت بعدها من غيبوبة توسلاته لرئتيه وللجهاز ولنا! نحن الأطباء وكأننا نملك الموت والحياة معًا! لقد عملت بعدها لفترات طويلة متواصلة من غير أن أفكر في لحظة لالتقاط الأنفاس أو لتناول الطعام، كما لو كان توقفي للحظة يعني مزيدًا من الوجوه الطيبة الميتة! لقد سئمت الموت وكرهته، أنا الذي عشت أعوامي كلها غير مبالٍ!

و على نفس السرير الذي فارقَتْ فيه روح المريض الستيني جسده، نام شاب لم يتجاوز الأربعين من عمره -على ما أعتقد-، فملامحه وسكناته تخبرني -أنا الطبيب الكهل الذي تجاوزت الخامسة والخمسين من عمري- أن أعوامه لا زالت تداعب الثلاثين وإن كان قد تجاوزها فسيكون ذلك من فترة قصيرة جدًا! كان متعبًا حزينًا خائفًا من الموت وبشدة! كل حديثه يتمحور حول سؤال واحد، تتغير طريقته وأسلوبه لكنه يؤدي نفس المعنى:

«هل سأموت؟»

«ما مصير المريض الذي كان يرقد قبلي على نفس السرير؟»

«هل تعتقد أني سأخرج حيًا؟»

«ألا يوجد حل لإنقاذي؟»

أسئلة عديدة جدًا لكنها تستفسر عن شيء واحد، هو كم بقي من عمره! هل كان يعتقد أن الطبيب يملك قلبًا من حديد! أي روح تتحمل أن تظل طوال وقتها تجيب على أسئلة القلوب المحتضرة! لقد كنا نصاب بالانهيار واحدا تلو الآخر! كانت إجابتي دومًا: «إن الله معنا». نعم إن الله معنا في الموت والحياة، هو لم يكلنا إلى أنفسنا في الدنيا، فهل يتخلى عنا في الآخرة! كنت أردد بيني وبين نفسي: محال أن يضيعنا الله أو أن يجمع علينا ذعرين.

يارب إن هذا الفيروس اللعين قد روّع عبادك فآمنهم.. ونجهم يا رب من شر ما خلقت!

جاء اليوم الذي أدرك فيه الشاب أنه لن يكون هناك غير الموت، أنفاسه كأنها تتمزق أمام أعيننا، أشار لي أن اقترب قليلًا فاقتربت. اقتربت بدون أن أتخذ أي إجراء من إجراءات السلامة، لم أتأكد من وضع قناعي ولا قفازاتي، لم أهتم بأي شيء من هذا، كان تركيزي عليه وحده. جمع كل ما يملك من قوة وبأس وهمس لي: «قل لأولادي وزوجتي أني أحبهم»! ثم فاضت روحه لخالقها. كانت الجملة كما لو أنها رسالة ثقيلة ومهمة أراد أن ينجزها، أو أنها ستقف في طريق موته!

سأبلغهم، ولترقد أنت في هدوء وسلام يا أخي، فمن هذه اللحظة ستكون حسيب نفسك فقط، لن يهمك إذا علم أولادك وزوجتك أم لم يعلموا. وعلى كل الأحول سأبلغهم!

إن الحديث عن الحالَات وعما رأيته خلال الأشهر القليلة الماضية يُعادل ألف حياة! كنت مدركًا تمام الإدراك أن نهايتي ستكون على أحد هذه الأسرة، وبالتحديد على السرير الذي مات عليه ذلك الفتى والشيخ من قبله. أنا الآن حبيس هذا الجهاز وضِيق أنفاسي! أعاني ما عانوه مَن قبلي، وأحمل رسالة عليّ إيصالها لأصحابها، أبحث عن الطبيب المناوب، أشعر أني أتوه في غيمة دخان داخل صدري، نيران تأكل رئتيّ بلا رحمة! أبحث عن أحد المناوبين ليحمل رسالتي كما حملت رسائل مرضاي من قبلُ! وكأن طيف طبيب يقترب.. ليته يدنو أكثر!

- أيها الطبيب! أريد أن أخبرك سرًّا أيها الطبيب!
- تفضل، أخبرني بما تريده.
- .....
- لا حول ولا قوة إلا بالله! إنا لله وإنا إليه راجعون!

(٧)

تيارات متضاربة متلاحقة تعصف برأسي، وأمواج عاتية تتلاطم على شاطيء العمر. نموذج غير متوقع للحياة! لقد ظننت أن كل ما تقدمت في العمر كلما قلّ انصهاري الذاتي المتجدد الذي لم يتوقف لحظة واحدة لألتقط بعض الأنفاس! إن القدر يرسم لي خطًا وحظًا من البؤس لا مفر منه ولا مهرب! وعندما أغلقتُ نوافذ أعوامي الثلاثين، أتت شمسي تشرق من مغربها لتطرحني عليلًا منصهرًا فوق جمرات فيروس مُحيّر! أتأمل جدران الغرفة المتهالكة، والأسرة الأشد تهالكًا، وأبحث عن شيء لا أدري ما هو! لعله الخلاص، الموت الذي أصبح قريبًا جدًا مني!

هل تعلمون ما هي أعظم المعارك؟ تلك التي يخوضها المرء مع «رئتيه»، يدفعها للصمود وهي تأبى إلا الانهيار والاستسلام! كنت أقرأ قبل دخولي هذا المكان الكئيب رسائل كتبها مرضى يصارعون الموت. تعجبت وقتها وقلت: ما أهمية بضع كلمات يُصر أصحابها على كتابتها أو النطق بها قبل أن يلفظوا ما بقى من أنفاسهم! ولكني الآن أعرف إجابة السؤال، هي ليست مجرد رسائل، إنها تخليد لتلك الحظات الأخيرة، ومحاولة مستميتة للبقاء حتى لو كان من خلال رسالة سيقرآها الآلاف أو المئات! إنهم يريدون الحياة. أي حياةٍ حتى وإن كانت مجرد حروف تتلقفها الألسنة!

والأن أريد أن أصنع رسالتي الخاصة بي، حروف بقائي أطول فترة ممكنة على قيد الذاكرة! ولأنني عشت عمري كله أصارع الزمن، أصارع الحياة والوقت. لذلك قررت أن أكتب لهم وأنا على وشك وداعهم! لقد سيطرت على نفسي حالة من السكينة الرائعة، على نحو ما يحدث وأنا أشاهد لوحات الرسام الشهير»سلفادور دالي». لا أدري سر الارتباط النفسي العجيب بين أعماله المجنونة وبيني! خاصة ذلك الشعور الغامض الذي كان يلفني وأنا أتأمل تحفته الخالدة «إصرار الذاكرة»! ابتسمت مرهقا وأنا حزين، فقد عرفتُ لماذا اتخذتها خليلة ونزيلة في غرف بيتي طيلة حياتي!

وحدي أرقد على سرير النهاية واللقاء قبل الأخير، أسمع في أعماقي دقات تلك الساعات الذائبة التي تظهر في اللوحة. أتخيلها كما هي تمامًا، بكل تفاصيلها المبهرة الغريبة! أربعة ساعات مثنية مائعة، تبدو وكأنها في حالة ذوبان تتناثر في الصحراء. هل تذوب الساعات؟ كيف؟ ومتى يحدث ذلك؟

إن التعبير غير المنطقي هو نفسه الحياة غير المنطقية التي نحياها! أربع ساعات ماذا تفعلن في الصحراء؟ وأين البشر؟ هل لأن الزمن سيمر ويتقلب بنا وبدوننا؟ لم أعتقد أبدًا أنني سأكون من هؤلاء الذين يتفلسفون وهم على فراش الموت. كنت أظنها مجرد ترهات لبعضهم أراد أن يثبت وجوده بشيء ولو كان غريبًا لا أصل له! لكنني هنا أتخلى عن كل ذكرياتي، وأقف عند مشهد واحد فقط؛ «لوحة إصرار الذاكرة»! إصرارها اللعين هو الذي يقودنا لحافة الفلسفة أو

الجنون!

فالساعات الذائبة والمائلة، كانت هي أعوامي، عمري المنتظم وغير المنتظم. هل جرب أحدكم أن يستيقظ متوقعًا أن الوقت هو منتصف الليل ليتفاجأ أن الصباح قد أشرق بالفعل؟ نحن غالبًا ما نكون جيدين بتتبع مرور الوقت أثناء سعينا اليومي، إلا أن تتبع الوقت أثناء نومنا قصة أخرى، وانفلات السنوات من بين أنامل أعمارنا قصة مختلفة! تخبرنا الساعات المائلة إلى أن الوقت لا يوجد له أي تأثير في عالم الأحلام، لذا فهي تذوب! والآن سأضيف سرًا لهذا العمل الخالد، وأرجوكم أن تخبروا «دالي» به. إن الساعات لا تذوب بالاحلام فقط، إنها أكثر ذوبانًا في الواقع! ها هي أعمارنا تتلاشى ذائبةً بتأثير فيروس طارئ! وها أنا هنا ألفظ آخر الدقائق في ساعات عمري!

لأصدقكم القول، أنا سعيد جدًا بهذه النهاية المبكرة، والطمأنينة والألم يحيطان بي من كل جانب! مستغرقٌ فيهما بالكلية، حتى أني أهملت غريزتي في البقاء ورغبتي في الاستمرار، كما أهملت من قبل ملكاتي ومواهبي! أنا الآن عاجز عن وصف أو رسم أي شيء مهما كان يسيرًا في غمرة اللحظة الراهنة. لم أكن فنانًا ولكني أجدت الرسم وفهم الرسامين وفهم اللوحات.

وبهذه المناسبة فقد التقيت بشاب يصغرني بعامين، لا يهم أن أذكر اسمه، كان لطيفًا ووسيمًا إلى حد بعيد، بدا لي كـ «برميل» معلومات لا أدري متى جمعها ولا كيف، ولكنه كان فخورًا بذلك جدًا!

استعرض مخزون معرفته كله تقريبًا أمامي، دعاني لزيارته في بيته فوافقت. عجيب هذا الشخص، لقد كان يسمي هذه الغرفة تحت الأرض «بيت»! ولما بدا الاشمئزاز واضحا عليّ همس لي وهو يبتسم: ألم يرق لك؟ وقبل أن أجيب فتح باب الغرفة ووجدت نفسي داخل كهف تم نحته في العصر «الباروكي»!

- ما هذا يا هذا؟

وقف وسط كهفه، أقصد غرفته، وهو في قمة التباهي! فسألته متى فعلت هذا وأنت بعدُ لم تبلغ من العمر الكثير؟ ومتى تذوقته لتطعمنا إياه! صمتتُ قليلًا ثم أخبرني بما بتُّ الآن أعلمه جيدًا، قال لي: «يطاردني إحساس بأن حياة المرء ليست أكثر من حلم! فأزلت كل الحدود الضيقة التي حبست بداخلي ملكاتي وطاقاتي! لماذا نبدد طاقتنا في الحصول على الكفاف من الضروريات التي لا غاية من ورائها إلا إطالة حياتنا التعيسة؟ في الوقت الذي يمكننا العمل كي نبقى للأبد على جدران الغرف والشوارع، لنرسم أحلامنا ونفرض رؤيتنا على كل العالم! لقد قررت ألا أموت في قلب أي أحد عرفته، لا بد أن يظل يذكرني بإرادة منه أو بدونها! لقد أذبت الوقت وسكبته في شرياني قطرة قطرة. هل فهمت الآن كيف فعلت هذا كله في هذا الوقت القصير؟»

أعترف لك يا صديقي أني لم أستوعب جيدا ما قلته لي. لعلي نعتتُك بالجنون وقتها، لكني في هذه اللحظة تحديدًا، وأمواج حياتي

الأخيرة نترنح داخل صورة كهفك المنحوت بآلة قلبك ومبادئك! الآن أقولها لك، وللوقت والزمن، وللساعات الذائبة

- لقد كنتم جميعًا على حق!

ثم لفظ أنفاسة المتهالكة الأخيرة...!

(٨)

«أنا الغريب المنفي المبعد، لماذا لا أكتب إليك؟ هل لأنني سليم معافى، لا أرقد تحت جهاز تنفس في إحدى مشافي العزل! من حقك أن تعرفني كما أعرفك جيدًا. ومن الجيد أن تشتاق إليّ كما أشتاق أنا إلى رائحة ترابك وهوائك. لا أدري لماذا أعتقد أنه يتحتم عليّ إخبارك بأنني لا زلت على قيد الحياة، لكني لست بخير! فأنا وباختصار شديد أعاني في عزلتي المفروضة والتي تحول بيني وبينك!

هل تعلم أنني واحد من قليل جدًا يعشقونك ويحنون إليك مهما غاص في الأرض شرقًا وضرب في أرجائها غربًا! أنا أحبك باختياري، لست مجبرًا عليك، ستجدني غريب الأطوار والأفكار لكنها الحقيقة! الناس يكرهون «الكورونا» لأنهم يخشون الموت، وأنا أكرهها لأنها حالت بيني وبينك! يعتقد من حولي أن أيامي حافلة بالسعادة كتلك التي أعدها الله لمختاريه! هل ستكون صدمتهم قوية عندما أخبرهم أني لم أذق طعم السعادة! وأن أفراح الحياة الموعودةَ موءودةٌ في أرضين لا أعرف سبيل الوصول إليها!

من الغريب أنني عندما قدمت إلى هنا أخبرني الجميع أنني سأنساك، وأن حنيني مؤقت زائف سيتلاشى مع الوقت والأيام! إلا أنني في كل مرة أمر على واد أو تل أتذكر بيتنا في قريتنا، وشجرة اللبلاب تحميه من عيون المارة، وشممت رائحة شجرة الليمون التي

زرعها والدي أمام البيت. ما أجمل الجلوس تحتها! هل عاش أحدهم شعورًا أبهى من ذلك؟ الشوارع ممتدة أمام عيني، تأخذني من عينّي إلى الفراغ الشاسع المحيط بالبيت. لقد تعلمت فيك أن الأبعاد والمسافات مثل المستقبل. الامتداد الغامض للأيام والمساحات واحد. يتراءى أمام أعيننا، يلوح لنا من بعيد أن اقتربوا! وما إن نقترب حتى نذوب ونذوب، إلى أن نتلاشى!

نعم أنا مفتون بك، مغرم بتفاصيلك، وهكذا يحن أمثالي لعناقك! أشم فيك رائحتها، ويختلط علي الحنين أحيانًا، هل أشتاقكَ؟ أم أشتاقها لأنها تعيش على أرضك! لم أستطع نسيانك ولا نسيانها، أراها في كل الوجوه! عندما أخرج كل صباح، أسير هائمًا مترنحا على ذكراك وطيفها! أصفها أحيانًا بالملاك، فيوبخني عقلي! كل امرئ يصف محبوبته بالملاك، لكن ما دخل عقلي في قصة هيامي بوطني ومحبوبتي!

في هذه اللحظة سجّل يا قلم الاعتراف! إني أشتاقها بقدر سجني بعيدًا عنها، ترى هل تدري هي كم كانت هذه الفترة ثقيلة كريهة عليّ ؟، أنا الذي لم أتحمل البعاد لأسابيع قليلة! والآن ملقى على الضفة الآخرى من العالم، لا أستطيع العودة إلى وطني ولا إليها! لم أستطع كبح جماح نفسي، أريد لقاءها بكل ما أوتيت من شوق! ولكني إذا أمضيت ما بقي من رسالتي لك على هذا النحو ستصفني بالمخبول في هواها، لذلك سأكتفي بهذا القدر في العتاب!

«في النهاية عليّ تذكيرك بأن تسأل عني وتتفقد حالي يا وطني! كم أحن لهواك ويأسرني الشوق إليك، وليس عدلًا أن أذوب في أحضانك وأنت كجبل جليد لا تبالي! وأخيرًا، طمئنها عليّ وبلّغها أشواقي! قل لها أني لا زلت على قيد هواها أحيا!»

(٩)

على ملاءة بيضاء متآكلة ممتدة فوق سرير معدني متآكل أيضًا، أرقد وأنا أشد تآكلا منهما! أراقب الضوء الفضي خلف النافذة وبزوغ شمس نهار آخر. أتأمل تفاصيل الغرفة، طاولة معدنية على يميني، عليها بعض الأدوات الطبية، وجهاز التنفس الصناعي عن يساري. لستم بحاجة للتفكير لتدركوا أين أنا، ولا لتمعن لمعرفة من أكون ؟، فأنا مجرد «حالة» من ضمن مئات الحالًات التي أصبحتم تسمعون عنها يوميًا والتي تم تشخيصها بالكورونا.

قبل أيام قليلة كنت أملأ الدنيا فرحةً وأملًا وأنثر الأمنيات على درب المستقبل. أفكر في تفصيلات الحياة البسيطة التافهة. ماذا سأرتدي، وبأي لون مجنون سأصبغ شعري، فحياتي كانت متمردة مثلي تمامًا! في وسعك أن تعرفني من نظرة! لكنك ستكون في حيرة دائما وأنت تسأل نفسك مَن أكون. بعيدة كل البعد عن الشكوى والتذمر، أزرع السعادة في صحراء واقعي رغمًا عني وعنها. قلبي متأهب دائمًا لتلقي النعم، بل وإيجادها في قلب عتمة المآسي والكروب. أنعطف مع الحياة يمينًا ويسارًا، أتحداها بكل ما أوتيت من رغبة في الوجود الهاديء العاصف المطمئن!

لكن عندما يئن الجسد ويعاني، تعاني معه النفس وتتملكها التعاسة! وبما أن لحظات تعاستي انحصرت في مرضي وغيابك عني،

فقد قررت أن تفنى أنفاسي الأخيرة في آخر سطور أكتبها إليك! لعل ذلك يرفع من منسوب غرورك أو يزيد في قسوتك!

« أنا لم ألتق بك، أنا بك التقيت بنفسي، لقد دُفعت في طريقك، استقبلتك وأنت تسير نحوي مهرولًا كأنما تتلمس في محرابي النجاة من هلاك مقدر تعلم أنه كُتب عليك! قلت في نفسي ماذا يعني أن أقابل رجلًا يقفز مختالًا بغروره! لكن الحقيقة أن الغرور هو من يقفز إليك وأنت في قربي. وكيف لا؟ ألست أنا الدنيا؟ وفجأة أصبحت بين يديك!

أعترف أنك ظللتَ ممسكًا بقلبي تشدني إليك، لا تفلت يديّ رغم انفلاتهما! أراك وأسمعك وأشعر بأنفاسك قريبة جدًا، أتحسس حرارتها تلفح وجهي وأيامي، فتشتعل وجنتي احمرارًا وتصطبغ بلون السعادة! أتدري كيف ذاك؟ إنه من تفاصيلك الكبيرة والصغيرة وخطوط حياتك وألوانك التي تشاركني بها في كل ثانية وحدي، وأنت فقط من يعلم كيف. فالإجابة تكمن في كل ما حولنا من أسرار وغموض ورموز لا أحد يدري شيئًا عنها سوانا!

عالمي وعالمك الذي اكتفينا به، وحملناه كرهًا وطواعية، وأقسمنا أن نذوب فيه حتى اللقاء الأخير الذي لم نحدده بعد! هل قيل لك قبل ذلك أنك تعيس في الحب؟ لقد اعتدتَ الهروب من أماكن انتشار الشوق وبيع المشاعر. فلم يجذبك الوقوف يومًا على متاجر الهوى ولا بقالات السعادة! ثم أدركتَ متأخرًا أن فؤادك فارغ، وأن ليس

هناك من يملؤه غيري، ولكنك أتقنت فن الاختباء والمراوغة وانتحال الشخصيات، حتى أصبحت لا تعلم من أنت!

أتدري! أنت تبحث في كل هذه العيون والأسماء والشخصيات عني! تذهب وتأتي وتنام وتصحو ولا شيء في خاطرك سواي! ولا صورة تتراءى وتتهادى أمام عينيك إلا صورتي! يأتيك صوتي أينما كنت، تضحك على نكاتنا وذكرياتنا وألعابنا، تعيش أيامك على ذكرى امرأة، هي أنا! تبحث عنها في رائحة الأوراق، القهوة، صوت المطر!

تعلم أني أعلم جيدًا كيف افترشتْ صورتي سقف حجرتك. تستيقظ في الليلة ألف ليلة لتلقي السلام والشوق وتتأكد أن ابتسامتي لا تزال تظلك، فتسكن روحك وتعود للنوم، وما هي إلا دقائق حتى تفتح عينيك مرة أخرى تبحث عني! وحين يستيقظ قلبك وتنتبه أنك لا تمسك بي، ترسل إليّ رسالة كتلغراف، فأتلقى حروفك المشفرة بقلبي، إذ يترجمها مسرعًا.

«أين أنتِ؟ هل لا زلت موجودة؟»

فأرد سريعا: «أقرب مما تظن!»

«كأنكِ كل النساء»

تهمس لي: «وأنا مجنون بكِ»

أبتسم وأخبرك أني سأحبك حتى آخر يوم، وحتى يحين الأجل

ويأفل كوكب العمر! تحاول أن تطيل الحديث فتسألني سؤالك المعتاد: هل لا زلت جميلة؟

فأخبرك: فقط لأني أحبك!

«أما زالت ملامحك تحتضن ملامحي؟ أتوه في اتساع عينيكِ، سعيدًا بهذه المتاهة! أما زالت شفتيك على حالهما! تعانق بعضها في ابتسامة لا يعلم سرها غيري!»

أشعر بالإعياء وأنا أتذكرك. أعتقد أنني سأتوقف الآن عن كتابة رسائلي إليك! ربما سأتوقف عن الكتابة للجميع. لا، لا تقل لي: فيلسوفة أنت! ستبقين على قيد الكتابة تلتهمين صباحاتي وأشواقي، فلمن أرسل أنفاسي من بعدك!

أتعلم! أشعر أني بدأت أتحرر، وكأن غيابك يدفعني للذهاب في استسلام تام! برغم حزني على انتهاء «صباح الخير» فيما سيأتي من صباحات لا أتواجد فيها ولستَ جزءا منها!

ستمر أوقات كثيرة عليك من بعدي تستمع لرائحة الصمت بأنفاس ميتة! هنا تحت عجلات الحياة التي صرعتنا معًا! سأنتظرك على ألا تلحق بي سريعًا! أمهلني وقتًا كافيًا كي أستعد للقائنا الأخر الذي لا آخر له، فكما أخبرتك من قبل:

«إن موعدنا ليس الدنيا، ولكن اجتماعنا هناك، حيث السماء مكان أرقى.. يليق بنا»

(١٠)

في البداية، اسمي فتحية. ويكفي الاسم الأول، لا حاجة لكم بأن تعرفوا اسمي الثاني ولا لقب عائلتي! أنا فلاحة مصرية. قبل عدة أيام قليلة جدًا لم يكن يعرفني أحد، ولم أكن أتخيل أنني سأواجه أحدًا منكم أو أعرفكم بنفسي. لكن فجأة وبلا مقدمات، أصبحت رمزًا وصار لي مناصرون ومدافعون لا أعلمهم! بل حتى هم لا يعلمون عني شيئًا! يحاربون ويدافعون عني نعم، لكن ليس من أجلي، بل من أجل مبادئهم هم!

يالها من ليلة كئيبة مزعجة، تلك التي أخبرني فيها حفيدي عما كتبته السيدة «إسعاد يونس» عن لقائنا القديم القصير في بيتها، عندما اصطحبني عم «نبراوي» للعمل عندهم. كنت قد نسيت هذه الأيام، أو بالأحرى كنتُ أعمل جاهدة على إسقاطها من ذكرياتي! فها أنذا لاهثة مكافحة أحاول أن أهدئ من روع نفسي، كي أخبركم بكل شفافية عما رأيته في بيوت «البهوات والباشوات»! لقد جعلني الخبر ألملم أغراضي القليلة جدًا في منديلي القماشي، وأتوسل للرجل الذي جلبني من قريتي أن يعيدني إليها وبسرعة! أردت العودة لعالمي البسيط، بكل مافيه من معاناة!

يعمل أبي من طلوع الفجر حتى أذان المغرب كل يوم. تساعده أمي وتعتني بنا. كنت أنا وإخوتي نتقاسم الفقر والجوع

كما نتقاسم المرح واللعب! نلعب ونحن نعمل، ونعمل ونحن نلعب. تملأ ضحكاتنا البريئة صدى القرية. كنا بعد المغرب نتناول العشاء الساخن، تصنعه أمي، وتُصرّ أن تصل رائحته لآخر القرية. عجيبٌ أمرها هذه المرأة! كانت إذا ما سخنت لنا الماء يخرج منه رائحة تفوق رائحة أشهى الأطعمة! وبعد أن نتناول الطعام كنا نخرج لنلعب مع أطفال القرية حتى نتساقط تعبًا واحدًا تلو الآخر!

حتى جاء اليوم المشؤوم! عندما زارتنا زوجة عم «نبراوي» لتقنع أبي وأمي أن تصطحبني للعمل عند أحد البهوات في «القاهرة»! وأخذت تردد مزايا العمل عند الأكابر. وفي لحظة ضعف لأمي -كانت نتيجة فقدانها لشقيقي الأصغر بسبب الفقر- وافقت! لكنها وافقت بعدما أخذت المواثيق والعهود على عم «نبراوي» أن يرعاني كابنته وألا يضعني إلا حيث يثق ويطمئن! فأقسم نبراوي أنه لن يمسني سوء! وجمعت لي أمي أغراضي القليلة وأودعتني يد الرجل ودموعها تستحلفه ألا يهملني!

لم أكن فرحة بالذهاب ولم أكن حزينة. تجمدت مشاعري في هذه اللحظة! كنت أراقب عيون أبي وأمي وهما يصارعان قرار الذهاب، وأستمع لحديثهما الذي لم ينطقا منه حرفا واحدًا! تركتُ يد «نبراوي» وجريت نحوهما وارتميت بين أحضانهما! وكأني كنت أعطيهم رشوة كي يعيداني إلى حيث كنتُ؛ تحت أقدامهما! إلا أن ذلك لم يجدي نفعًا. نهرني الرجل واتهمني بأنني أضيّع الوقت، لأن القطار لا ينتظر أحدًا..

ما إن ركبت القطار، حتى نسيت من تركت خلف! جريت بسرعة لآخذ مكاني بجوار الشباك. وضعت صرة ملابسي تحت أقدامي، وأخرجت رأسي من الشباك. إنها المرة الأولى التي أركب فيها القطار وأغادر القرية، والمرة الأولى التي أذهب فيها طبعًا إلى «القاهرة». إنه شعور من حيزت له الدنيا! حسنًا هذا حقيقي حتى لو كنت سأعمل كخادمة! ليس مهمًا، فأهل المدينة يختلفون عن أهل القرية -على ما أعتقد-، فهم يتعاملون برقي واحترام مع الجميع. يرتدون ألوانًا براقة ويعيشون حياةً مختلفة. فما ضرني إن كنت خادمة عندهم؟ وما الفرق أصلًا بيني -في هذه المكانة- وبين الوزيرة! هكذا ينادي أهل «البندر» بالمساواة وبالحقوق والعدل.

تحرك القطار وأنا نصفي تقريبًا يخرج من شباكه، ألوح لقريتي الصغيرة التي تبتعد تدريجيًا، وتتلاشى صورتها من أمامي. وعندها نهرني عم «نبراوي» للمرة الثانية، وأمرني أن أجلس حتى لا تقطع رأسي. ثم بدأ بتوجيه النصائح التي يجب علي اتباعها ليرضى عني «أسيادي»؛ الهانم والبيه تحديدًا! كنت أستمع إليه بعقل شارد. ما كل هذا الذي يقوله ولماذا؟ هل أنا ذاهبة لأساعدهم في أعمال البيت أم لأتبناهم بالكلية! أردت أن أخبره أن يصمت قليلًا، لكنه لم يصمت إلا عند باب البيت!

فتح لنا الباب طفل صغير لم يتجاوز عمره السادسة. آسفة! لم يفتح الباب، بل فتح ما يكفي لخروج رأسه، ثم صرخ وهو لا يزال على وضعه: «عم «نبراوي» يا أمي ومعه فتاة صغيرة!» قلت في

نفسي: أكيد أنني أنا الفتاة الصغيرة! ظل الولد كالصنم واقفًا مكانه لا يتحرك! لا يفتح الباب ولا يغلقه، ولا يزال رأسه الصغير خارجه. يتأملني ويفحصني بنظرات غريبة! مرت دقيقتان قبل أن تظهر سيدة ممتلئة القوام بشكل ملفت، ترتدي فستانًا منقوشًا باللون الأخضر، مما جعل قوامها يبدو أكثر بدانة! ترفع شعرها وتشده بقوة للوراء كما لو أنها تصلبه! لم تدعونا للدخول. تحدثت بفظاظة واضحة مع العم «نبراوي»، ثم دست مبلغًا من المال في يديه. وعندها بدأ العم ينسحب للوراء في خطوات بطيئة وهو يدعو لها بطول العمر!

- ادخلي يا بنت!

قالت السيدة.

- اسمي فتحية يا هانم.
- أعرف اسمك، لكن هل ستبدئين «اللماضة» من الآن!

ادخلي، ومنذ الآن عليك أن تناديني بـــ يا «ست هانم»!

- حاضر يا ست هانم.

دخلت البيت وأنا أشعر بالبرودة تلفني، برودة المكان وليس الجو! حين توقفت في وسط الصالة، كان «البيه» يجلس على الأريكة يقرأ صحيفة. رفع عينيه دون أن يرفع رأسه متفحصًا الزائر الجديد، ثم سأل زوجته:

- هل هذه هي الخادمة التي أحضرها نبراوي؟

ردت على زوجها بغلظة:

- نعم إنها هي.

صمتت قليلًا ثم تابعَت:

- إنها أصغر عشر سنوات عن التي قبلها، هل تفهم معنى ذلك أم تريد توضيحًا أكثر؟

كانت لهجتها غريبة متحفزة. لم أفهمها في ذلك الوقت، ولكنها دبت الرعب في أوصالي! وهذا الرجل لا يشبه أبي ولا يشبه رجال قريتنا. إنه مثل «كارتونة» ورقية رُسم عليها عينان وحواجب وفم. دون ذلك لم أر أي ملامح سوى أذنين كما لو كانت الكرتونة لها يدين!

أعاد الرجل عينيه للجريدة دون أن ينبس ببنت شفة. وأعتقد أنني نسيت وجوده بعدها! إنه على عكس رجال قريتنا، فالرجل عندنا له حضور قوي ومؤثر في كل من حوله! كما أن هذه المرأة سمينة جدًا! إن أمي تبدو في نصف وزنها، فهي رشيقة ونشيطة تتحرك ذهابًا وإيابًا طيلة اليوم! ترعانا وتساعد أبي وحتى الجيران. تقص لنا قصصًا جميلة، تجمعنا حول طعامها وحكاياتها، ولا تهمل أحدًا منا ولا تدعه يغيب حتى بمشاعره بعيدا عنها!

وفجأة خرجت من الغرفة فتاة تشبه السيدة كثيرًا، هي ابنتها. شعرها منفوش فوق رأسها بشكل عمودي، وعلامات الكسل بادية جدًا عليها. أخذت تتفحصني من رأسي حتى أخمص قدمي. اقتربَتْ مني قليلًا ومدت يديها وتلمست ضفيرتي (والتي كانت بطول

ظهري)، وسألتني بتعجب واضح: كل هذه ضفيرة! لم أعرف وقتها ما الجواب المناسب! وهل هي تقصد امتداحي أم تسخر مني، خاصة لأن شعرها الواقف (وقفة الانتباه) فوق رأسها يخبرني عن قصة معاناتها معه ومعانته معها! فاخترت ألا أرد. تابعت كلامها:

- هل تضعين (الجاز) على شعرك؟

أجبت:

- لا.
- كل الفلاحين يمشطون شعرهم بالجاز!
- الجاز يستخدم لتنعيم الشعر، وأنا شعري ناعم لا يحتاج لـ(الجاز).

أجبتها وأنا أنظر إلى شعرها! فحسم صوت الست هانم المعركة التي كانت لا تزال في البداية! وأمرتني أن أدخل الحمام! دخلت إلى الحمام لأغتسل. بدلت ملابسي ومن ثم خرجت. لأجدها تعطيني تعليمات العمل. تمنيت لو أني بدأت العمل منذ الصباح، فالمسافة التي قطعتها سفرًا أرهقتني كثيرًا، لأنني مستيقظة من قبل الفجر، ومع كل ذلك، أجبتها: طيب.

أديت نصف المطلوب مني، وكنت على وشك الإغماء! رجوتها أن تؤجل تلميع الزجاج والأثاث للغد! خاصة لأنها -على ما أعتقد- لم تغسل صحنًا واحدًا منذ مغادرة الخادمة التي كانت قبلي! لماذا لا تتحرك هي وابنتها التي تكبرني بأعوام قليلة؟! الحركة بركة، كما تقول أمي، ورشاقة أيضًا! أليست الحركة أفضل لهن من أرطال الشحوم التي

تهتز مع كل حركة من جسدهما! سألتني بجفاء: «أتريدين طعاما؟» وهل هذا سؤال! لقد أتيت من سفر بعيد يا ذكية! كما أني أعمل منذ وصولي لعدة ساعات أخرى! ولكن لأنني لم أعتد عليهم بعد، خجلت من اعترافي بالجوع! فقالت لي:

- اذهبي للنوم!

في غرفة مشتركة بيني وبين الغسيل، سرير صغير في جانب الغرفة ودولاب صغير جدًا، وبقية الغرفة أدوات غسيل ومستلزمات له. نظرت إلى السرير، لقد كان يحتاج لوقت ومجهود لاعادة ترتيبه، فقد وضعوا فوقه العديد من الملابس التي لا أعرف هل هي نظيفة أم لا! ولا أعرف أين أضعها، وكذلك أطباق بلاستيكية خاصة بالغسيل. لذلك قررت أن أنام على الأرض، حتى لا أُضطر لترتيب السرير الآن، فقد قتلني التعب.

وما إن وضعت رأسي حتى نمت! وسرعان ما استيقظتُ على صوت صفير قطار حاد. ما هذا! إنه صوت تلك الفتاة المنكوشة! تسخر مني وتظن أنني غير معتادة على النوم على السرير! نظرت إليها وأنا أغالب النوم، وما هي إلا لحظة حتى عاودت الدخول في بئر الأحلام مرة أخرى.

مع أذان الفجر استيقظت على صوت معدتي تصرخ جوعًا، ذهبت لأبحث عن شيءٍ يصلح للأكل. فتحت الثلاجة، وجدتها تحتوي على العديد من الأشياء، لكن ليس فيها مايصلح للأكل! هل هذا بخل

أم قلة ذات يد؟ إن بيتنا به طعام أكثر من بيتهم! أخذت قطعة جبن مع رغيفين من الخبز وكوبًا من الحليب.

ولم أكن أعلم أن تناولي رغيفين جريمة! فالخبز بالعدد! غير أن الجريمة الأكبر كانت شربي لكوب الحليب يا سادة! إن الحليب للأكابر فقط! كما أنه موجود ليوضع فوق الشاي، لا ليوزع هكذا صدقة! أين الخبز الذي تصنعه أمي فنأكل منه ولا نحصي ماذا أكلنا! الجبن أيضًا، تصنعه أمي لنا فهو متوافر طول الوقت، وكذلك الحليب! لكن هنا كل شيء بحساب وبعدد! الشيء الوحيد الذي على العكس من ذلك هو شغل البيت!

كنت أعمل ليلًا ونهارًا. أخرج لأشتري أغراض البيت، أكنس، أنظف، ألمع، كل عمل المنزل كان على عاتقي! ثم تأتي الست هانم لتتحدث عني إلى صديقاتها قائلة: «البنت «البلوة» (أو التحفة) التي ليس لها أي فائدة، تشكل عبئًا علي! إنما أجعلها عندي إشفاقًا عليها وعلى أهلها الفقراء!» فإذا ما أتى أحد للزيارة وأثنى على نظافة البيت، يصير كل هذا من صنع أيدي ابنتها النشيطة التي «لا يغمض لها جفن» حتى ترى كل زاوية من زوايا البيت تلمع!

ما هذا العالم الغريب المنافق! تبًا للقاهرة إذا كان هؤلاء قاطنيها! لم أعرف البخل ولا الكذب ولا النفاق ولا الجوع إلا فيها! لماذا تركت بيتي وقدمت إلى الأكابر الأغنياء! أقسم لكم أنني أدركت في مدة لا تزيد عن أسبوع واحد أنني وأهل قريتي الأكابر الأغنياء

بحق! فتعسًا لكم أكابر المدينة ومجرميها إذا كنتم جميعًا على هذه الشاكلة! أما أنت يا عم نبراوي فغدًا ستعيدني إلى قصري، ولتهنأ أنت بمجاورة «البهوات والبشوات»!

(١١)

يالها من ليلة! قد نفدت طاقتي، ولم يعد في وسعي أن أتحمل أي شيء! ألن أراهم بعد اليوم؟ سألت نفسي بينما أنتظر سيارة الإسعاف لتحملني إلى أقبح بقاع الأرض؛ إنها «مستشفى العزل.

رغبت في البقاء بينهم والموت في أحضانهم! أشعر أنها النهاية، لكن تبقى غريزة البقاء والاستمرار! لعلي أعود إليهم، كما أقنعني زوجي وهو يمسح على شعري! لعل إصابته قبلي وشفاءه قبل أن تظهر أعراض الفيروس التعيس علي هو ما جعله قريبا مني! لم يتردد في ضمي إليه وهو يطمئنني بأن كل شيء سيكون بخير! لكن رؤية أولادي وهم نائمون الآن في سلام هي ما يمزق قلبي! لا يخطر لي أبدًا أنها قد تكون النظرة الأخيرة. أخشى أن يستيقظوا على صوت دموعي وتنهداتي! لقد وعدتهم أن آخذهم للحديقة، وأن نتناول الغذاء يوما على شاطيء البحر! هل لي أن أحقق وعدي قبل أن يوافيني الأجل؟!

ضمني زوجي بقوة وهو يهمس لي: لقد تجاوزنا معًا أمورًا أصعب، وسنتجاوز هذا أيضًا أنا مؤمن بذلك! صمت قليلًا ثم قال وهو يحاول أن يكون مرحًا:

- أخبريني فقط بمكان الأموال والمجوهرات، وكل شيء سيكون على ما يرام!

ضحكت من وسط دموعي، ويده تمسح على خدي:

- إنها في قارورة بلاستيكية تحت حائط غرفة النوم!
- تحت الجدَّار؟

ردد ما قلته وهو يضحك، ثم تابع:

- يعني ذلك أن عليّ الاختيار بين هدم البيت أو البقاء مفلسًا! حقًا «إن كيدهن عظيم»!

ضحكنا معا. فأنا لم أكن أملك مالًا ولا حتى خاتمًا من فضة. لكنني كنت أملك ما هو أعظم من ذلك بكثير؛ أملك زوجًا من ذهب، وثلاثة من الأبناء رائعين! ألم يفكر أحدٌ يومًا ما أن الحصول على الأرواح أعظم من الحصول على الأموال! ألم يشتري القدامى الروح بالمال! ألم يدفع السادة العديد من الأموال لشراء أكبر عدد ممكن من الناس! لأن امتلاك الناس أعظم من امتلاك المال. وها أنا أمتلك أربعة من القلوب الجميلة!

رفعت عيني لألتقي بعيني زوجي الغارقة في الدموع، ثم وعدته بلا دليل على صدق وعدي:

- سوف نحيا من جديد!
- سيرى كل منا الآخر مرات ومرات بكل تأكيد. لا زالت أمامنا حياة طويلة جميلة!

نظرت إليه وأنا أتخيل كيف كنت أجلس بين أطفالي، وكيف كنت أحوم حولهم ويحومون حولي طيلة النهار، لا تسكت أصواتهم إلا بنومهم. كنت أتذمر وأشكوهم إلى أبيهم عند عودته ليلًا. خاصة ذلك الصغير الذي لا يهدأ ولا يستقر في مكان! لا يسمع أبدًا لأي

توجيه، فإذا ما حاولت توبيخه نظر إليّ بعينيه البريئتين الحادتين، ثم وبسرعة ألقى نفسه في حضني، فأضمه وأقبله كثيرًا! إنه غير مدرك لخسارته الفادحة الوشيكة! إنه يشبه والده كثيرًا!

تشبثتُ بيد زوجي! الوقت يمر، وهذا يعني أن سيارة الإسعاف تقترب! لا أخشى الموت، إنما أخشى فراقه! أحطته بذراعي ووضعت رأسي على كتفه وأنا أعود بذاكرتي لأول يوم التقينا فيه! كان ذلك على بوابة جامعة القاهرة آخر عام في كلية الصيدلة، وآخر يوم في الاختبارات. وقفتُ أتحدث مع زميل لي في نقاط ضمن مادة الامتحان، خشيت أنها قد تكون ضمن الأسئلة، وما إن انتهيت وأخذتُ خطوة في اتجاه المدرج، إذ بشاب لا أعرفه يعترض طريقي وهو يعتذر عن تأخيره! نظرت إليه مندهشة فتابع حديثه:

- آسف جدًا أن جعلتك تنتظريني كل هذه السنوات.
- سنوات؟! أي سنوات؟ هل تعرفني؟
- أعرفك منذ فترة طويلة جدًا. تقريبًا منذ خمسة وثلاثين عامًا! أي عمري كله!
- هل تمزح معي؟ أنت.....
- لا أمزح ولا أعبث.

قاطعني وهو ينظر في عيني مسببًا لي ارتباكًا شديدًا، وأردف قائلا:

- من فضلك أخبري والدك أني سأزوره اليوم الساعة الثامنة مساءً!

رفعتُ كتفي وأشحت بوجهي، وتابعت سيري نحو قاعة الاختبارات. كان اختبارًا تعيسًا! يبدو أنني قد نسيت به كل ما سواه! خاصة وأن بعض الجزئيات التي من المفترض أنها محذوفة، كانت تتوسط ورقة الاختبار! نظرتُ لبقية زملائي فوجدت أفضلهم حالًا يتصبب عرقًا. و كمية المناديل الورقية الملقاة بجواره تخبرك عن حاله!

«هذا اليوم واضح جدًا من بدايته» هكذا حدثت نفسي. وكان كل ما أتمناه في هذه اللحظة أن أنام! كتبت إجابات «خزعبلية» على الأسئلة التي لم أرها من قبل، وأعتقد أنني لم أكن الوحيدة التي فعلت ذلك! سلمت الورق للمعيد وأسرعت إلى منزلنا! في الطريق إلى البيت تذكرت الحوار الغريب الذي دار بيني وبين الشخص العجيب الذي قابلته في الصباح! لقد بدا وجهه مألوفًا، لونه «القمحي» يشبهني كثيرًا، وعيناه حادتان كسوط لاسع لا بد أن يترك أثره عليك اذا ما لامسك! طويل ونحيف بشكل ملفت، ومتعَب! أيمكن وصف ملامح أحدهم بأنه متعَب؟ نعم لقد كان كذلك.

ما إن وصلت البيت حتى ألقيت بكل أعبائي على طاولة الطعام، فلم أضع لقمة في فمي منذ الأمس! طمأنت والدتي وتحدثت قليلًا مع إخوتي ثم وسريعًا كنت في السرير أغط في سبات عميق. نمت كما لم أنم من قبل! لم أدرِ كم مر من الوقت، لكني استيقظت بعد فترة وشعور بالجوع يقرص معدتي. تركت فراشي وخرجت لآكل أي شيء ثم أعود للنوم مرة أخرى. حينما خرجت من غرفتي في اتجاه المطبخ، وأمام باب الصالون المفتوح، تجمدت أطرافي من المنظر

وشُلّت عن الحركة تمامًا!

من هذا الذي يجلس أمامي! التقت أعيننا، فابتسمَ ابتسامة سرعان ما تحولت لضحكة كبيرة! فقد كنت في مظهر مثير للسخرية! ملابس منزلية غير متناسقة أبدًا، كنت في عجلة من أمري حتى أنام، فارتديت بلوزة قديمة ولكنها مريحة، وبنطالًا يعود تاريخه لأيام الثانوية العامة، ألوانه باهتة وتملؤه البقع التي سببها «مبيض الملابس»! لكنني أحبه، وقد اعتدتُ أن أرتدي هكذا في آخر أيام الاختبارات تعبيرًا عن حالة الاسترخاء التي أود الدخول فيها. وكان شعري منفوشًا، كل شعرة في اتجاه! أردت أن أطلق ساقي للريح خارج المنزل، لكن أين أذهب! «يا أرض ابلعيني!» لقد جاء فعلًا! كيف عرف عنواني؟ هل تبعني إلى البيت؟ إن لم يسحب عرضه للزواج بعد هذه اللحظة التاريخية فهو يستحق المجازفة والموافقة! ورغم ضعف إمكانياته المادية، فقد أعجب أبي كثيرًا ودخل قلبه كما دخل قلبي!

عشت معه أيامًا جميلة، نكافح سويًا ولا زلنا. لا شيء يحزن في وجوده، لا صعب بجواره. كانت الأيام تمضي بنا طيبة هانئة، ضحكاتنا تهوّن علينا أشد الأزمات، تجاوزنا معًا أسوأ المعارك، واكتفينا بقلبينا، ثم بقلوب أبنائنا. أحباب قلبي الذين يحملون نفس صفات أبيهم، لذا أحبهم فوق الحب حبًا! والآن أنا أكاد أفقده! لكن إذا كان الفقد يعني ذهابي لا ذهابه ورحيله عني، فذلك ما يخفف عني، لأنني لا أتحمل الحياة دونه لحظة!

مسح على شعري وهو يُقبّلني، فقد وصلت سيارة الإسعاف كخنجر غُرس في صدري! هل تتآمر الدنيا عليّ! هل تسلبني روحي مرتين، مرة بموتي ومرة بفراقهم! أخفيت انفعالاتي ورسمت ملامح الصمود والهدوء على وجهي! وقبّلته قبلة بطعم الحيرة، تسأله سؤالًا لم أنطق به: هل سأعود إليك مرة أخرى؟

(١٢)

كدتُ أن أحرق جرس الباب أو أقتلع الباب! لحظات الانتظار حارقة. أخيرًا فتحتُ الباب. دخلت مسرعة في اتجاه غرفته. كانت زوجته بمثابة أخت لي وصديقة عمر. أما هو فقد كان العمر نفسه! لم أعترف يومًا بأنه ابن عمي، ولم يعترف هو بذلك! كنا أكبر من أي مسمى، وكانت علاقتنا أسمى من أي وصف. ورغم كونه مصاب بالكورونا، وقد أمر الطبيب بعزله عدة أيام أملًا في ألا تتدهور حالته، وأن يشفى دون أن يُنقَل للمستشفى، فإنني الآن معه. رغم ذلك! وهل يستطيع «فيروس» أن يحرمنا من بعضنا! ابتسمت له حينما التقت أعيننا. ورغم أن دموعي تغطي وجهي، فقد رأيته من خلفها باسمًا بريئًا كما اعتدت أن أراه. أشار بيديه: ألا تقتربين! فسحبت كرسيًّا موضوعًا في أول الغرفة، ووضعته بجواره، قريبا منه، ليس لأنني بفترة النقاهة بعد شفائي من الكورونا، ولكن لأنني كنت سأضعه في نفس الموضع حتى لو لم أكن مرضت قبله!

نظر وعيناه تقول لي: أخذت العدوى منك يا بنت عمي! ثم ابتسم، يعلم أنني سأقرأ ابتسامته. رفعت حاجبي الأيمن وضيقت عيني اليسرى وأنا أقول له:

- كل ما وقعت في مصيبة جعلتني سببًا فيها!

وبدلًا من أن يرد بإشارة من وجهه أو يديه، بدأ في نوبة سعال تأبى

أن تتوقف! كان مرهقًا هزيلًا بلا لون، وكأن روحه غادرت جسده منذ فترة طويلة، وروحي تقف على باب جسدي تُلقي بنفسها وراءه!

- اصمد يا أخي! اصمد من أجلي! لا مجال للتفكير في الرحيل. لمن تتركني؟ ليس من المروءة أن تبقيني في هذه الدنيا البائسة وحدي! ألم نتفق أن ننهيها سويًا!

حاولت أن أخفي انفعالي، ولكن دموعي خانتني، فانهمرت على خدي سيّالة. أخيرًا هدأ السعال! استجمع أشلاء أنفاسه المبعثرة وقال:

- لا تبكي يا سارقة الدجاج!

كان كل حرف يخرج بمثابة خنجر يغوص في قلبي، فقد أيقظت كلماته ذكرياتي ومشاعري! ورغم أن داخلي يعتصر خوفًا عليه، فقد كان يجدر بي الابتسام حينئذ. فابتسمت له، وهمست في أذنه: «ألم تكن خطتك؟ ألست شريكًا؟»

- أتعتقدين أن ما نحن فيه بذنب تلك الدجاجات المسروقة، والبيض الذي أكلناه معًا!
- اذا حاسبنا الله على جرائمنا التي اقترفناها سويًا في صغرنا، فلن نقوم من على فراش المرض يومًا!

ضحك من قلبه ثم قال:

- أنا لم أفعل شيئًا. أنت من كنتِ تقفزين للداخل وتفتحين لي الباب!

- لأنك كنت «سمينًا! كيف ستقفز بكل هذه الشحوم و....

قاطعتنا نوبة سعال أخرى! أقسمت عليه ألا يتحدث، وسأتحدث أنا نيابة عنه. «حتى السخرية التي يريد أن يوجهها إلي، سأقوم بها بدلًا عنه!»

يصعب على أي شخص أن يتخيل طبيعة علاقتنا، أو أن يدرك مدى ترابطنا. لعل هذا يعود إلى شخصيتنا المختلفة عن من حولنا. فأنا كنتُ أغرق بالكلية في كل مشهد من مشاهد حياتي، مما يجعلني أتقنه وأجيده دون انتباه، كما لو كان هذا الاستغراق رمالًا متحركة تسحب كل من يقترب منها! لقد عانيت بسبب ذلك كثيرًا، فأنا أسحب من حولي دون قصد ولا وعي، ثم أُفاجأ بأصواتهم تستغيث بداخلي! أما هو فقد كان طفلًا ولا يزال طفلًا! ما من شيء على وجه البسيطة يؤثر في فؤادي مثلما يؤثر فيه هذا الطفل الكبير! الطفل الذي كان كـ «أب» و«أخ» لي، بل إنه كان كأمي عندما لزم الأمر! أرى في عينيه جميع الفضائل والمزايا!

وها هو يعاند ألمه من أجلي. أثق تمامًا أنه لا يدافع عن حياته إلا لأجلي! فطالما عاشها لي قبل ذاك. لم نفترق يومًا حتى حين افترقنا!

لا أستطيع تحديد متى كان ذلك الوقت حين أدركنا وجودنا معًا! لكننا متواجدون منذ أن بدأت أعمارنا تتفتح. وكأن أطفال العالم

اختفوا وبقينا نحن وحدنا! تجاهلنا إخوتنا وبقية أقاربنا وانطلقنا سويًّا في عالم طفولة شيطاني! إذ ارتكبنا فيه من الجرائم ما نخجل أن نذكره لأبنائنا الآن، و تهددنا بقية العائلة دومًا بفضحه، وخاصة ما كان في تلك الأيام التي قضيناها بالقرية في بيت جدي، إذ لم تكن تكفينا ساعات النهار ومعظم ساعات الليل للعب والمؤامرات!

أشار إليّ لأُعدّل وضعية الوسادة خلف رأسه، فرفعتها قليلا لتكون في وضع مريح. وعدت للجلوس مكاني.

- أتذكُرُ ذلك اليوم الذي سرقنا فيه البيض من بيت «سعاد»؟

أغمض عينيه وابتسم. تابعت حديثي:

- وطبعا تتذكر «العلقة» التي أخذتها من والدك!
- «علقتين»!

قالها بصوت منهك، وأكمل:

- عني وعنك!

أشرت إليه ألا يتكلم! وكنت موقنة أنه يتكلم دون أن ينطق بحرف واحد بلسانه، فأنا أسمع ما يدور في قلبه!

لم تكن «علقة» سرقة البيض المرة الأولى التي يتحمل فيها نتيجة أخطائنا وحده، فيعترف بأنه صاحب الذنب وأن لا دخل لي فيه. كان يخبرني أنني «بنت»، أي ضعيفة ولن أتحمل الضرب، أما هو فـ«رجل»، والرجل قوي ليتحمل الضرب! كم كلفته عنتريته هذه أقلامًا على وجهه وركلات على مؤخرته وصفعات بالـ«حزام» على

ظهره!

أذكر يومًا محفورًا في ذاكرتينا، حين قررنا السطو على حوش «سعاد»، بائعة البيض في القرية، والتي اشتهرت بالبخل الشديد وكره الأطفال. كانت تأتي إلى بيت جدي وعلى رأسها طبق كبير مغطى بقطعة قماش بيضاء، وتجلس على بابه وترفع الغطاء عن الطبق الذي كان بداخله مجموعة من العلب البلاستيكية تحتوي على:بيض وجبن وزبدة وقشطة. ولا أدري ماذا كانت تحمل معها غير ما ذكرت. لكنها كانت تعاملنا بجفاء وغلظة. لم تبتسم لنا يومًا قط! ذات مرة اقتربتُ منها وقلت لها:

- الأطفال أحباب الله!

فردت عليّ بغضب:

- الأطفال وليس أنتم! أنتم أحباب الشيطان!

سكتَتْ لحظة ثم تابعت:

- القرود مسخ الله وليسوا أحبابه!

(علمنا بعد فترة أن زوجها طلقها لعدم قدرتها على الإنجاب، وتزوج بغيرها. وفيما يبدو: قد أصابها ذلك بعقدة! فاعتبرت أن الأطفال هم السبب في طلاقها ووحدتها).

في ذلك اليوم قرر «ابن عمي» أن يثأر لي! غمز لي بعينيه وخرج، فتبعته بسرعة. جلسنا تحت شجرة على باب البيت، وقررنا أن نقتحم حصون «سعاد» ونسرق البيض! وقتها لم أكن قد تجاوزت السابعة من عمري بعد، أما هو فكان قد تجاوز التاسعة بأشهر قليلة. أما

خطة «السطو» فكانت كالتالي: سيحملني حتى أتسلق السور ثم أقفز داخل «الحوش» ثم أفتح له. نظرت إليه وكان باديًا عليه التفكير، فقاطعت أفكاره معترضة: مستحيل! عرف أنني قد أدركت ما يفكر فيه! أنا لا أستطيع حمله ولا حتى حمل ذراع واحد منه! ضحك وهو يقول:

- كانت مجرد فكرة!
- لا تفكر حتى مجرد تفكير!

قلتها وأنا أدعي الذعر. وبدأنا في مراقبة «سعاد» بحذر! وعندما تأكدنا أنها غادرت منزلها، كنا تحت سور البيت الخلفي. وفي أقل من ثانية، كنت قد تسلقت السور، ثم قفزت للداخل. وقعت في وسط «مسقاة» الطيور، فتناثر الماء في كل مكان حولي فتبلل ثوبي بماء المسقاة والتصقت به بقايا طعام الطيور والتصقت بكل مكان في جسدي أيضا ! شعرت بالغثيان ولكن لم يكن لدي وقت للتأفف! ركضت نحو باب الحوش وفتحته، وما إن دخل ابن عمي حتى أمسك أنفه بيديه وهو يقول:

- ما أسوأ رائحتك! تبدو كرائحة «بطة» ميتة!

أردت أن أضربه بصحن طعام الطيور لأنه صاحب الفكرة، لكنني فضلت أن ننتهي مما نحن فيه أولًا. وبسرعة جمعنا البيض من كل مكان في الحوش، ولأننا كنا صغارًا فلم نستطع التمييز بين بيض الدجاج وبيض البط وغيرهما، فحملنا كل ما وقعت عليه عيوننا،

وكانت غنيمة كبيرة جدًا التي حصلنا عليها ومن ثم أطلقنا سيقاننا للريح! تركنا أهم شيء؛ الباب خلفنا، لكن ابن عمي أقسم ألا يحملني مرة أخرى بعدما أصبحت رائحتي «عفنة» على حد تعبيره! فغادرنا بسرعة وغادرت بعدنا كل طيور «سعاد»، وانتشرت في القرية، وغطى صوت الدجاج والبط على أصوات البشر فيها!

عندما أصبحنا بعيدين عن بيتها، جلسنا لنفكر في كيفية التخلص من «البيض»! اقترح هو أن نُلقيه في الشارع، واقترحت أنا أن نقوم بتوزيعه على بعض معارفنا وكأن جدتي من أرسلته لهم! فنفذنا اقتراحي دون أن نطمئن لجوانب الفكرة كلها وتبعاتها..

طرقنا أبواب ستة بيوت، وربما أكثر، لا أذكر تحديدًا، وأهدينا أصحابهم كمية من البيض، نعتقد أنها قد تكفيه لمدة عام كامل! ولسان حال كل واحد منهم: «ما هذا الكرم الصارخ الذي نزل بجدتكم! هل اقترب أجلها وتريد أن تُكفّر عن سيئاتها؟!» انتهينا من التوزيع ولم نلتفت لأننا لم نفرّق بين «البيض» الذي كان يرقد عليه البط وبين البيض العادي!

حين عادت «سعاد» ووجدت باب الحوش مفتوحًا وخرجت منه كل الطيور وليس فيه غير المسقاة التي وقعتُ فيها، انطلقت خلف طيورها في القرية تلملمهم دجاجة دجاجة وبطة بطة، وهي لا تعلم ما الذي حدث! إلا أن أحد (المتفذلكين) ممن يتابع برنامج «أغرب القضايا»، ويفخر بنفسه في كل مرة يتعرف فيها على القاتل،

اشتعلت قريحته، وربط بين الواقعتين؛ توزيع البيض بهذا الكرم الفجائي (دون انتباه للمعد منه للتفريخ وتفريقه عن البيض العادي)، وبين باب الحوش المفتوح، وأخبر «سعاد» بأننا وراء هذه الفعلة!

لم تكذّب المرأة الخبر! وحتى لم تراجع الأحداث في مخيلتها، بل كانت، في أقل من خمسة دقائق، تبكي أمام جدي وجدتي وتصف لهما كيف أننا تسببنا في «خراب بيتها». ولم ينتظر جدي أن تنهي حديثها حتى بدأ في توجيه «الركلات» و«الصفعات»، ويبدو أنها أرادت أن تشهد هذه اللحظة لتشفى غليلها! وبدأ جدي يجري خلفنا بالحزام، فقال له «ابن عمي» أني بريئة ولم أفعل شيئًا، وأنه هو الجاني الوحيد!

لقد كان بجانبي دومًا خفيفًا يطفو بعد كل غرق! كجذع شجرة صالح للاستناد عليه! كطوق نجاة!

ومن ثم تركني جدي وبدأ يلاحق «ابن عمي» الذي ترك كل الجالسين واختبأ خلف «سعاد»! لكن نظرًا لحجمه الكبير، فقد كانت الضربات تصيب المرأة أكثر مما تصيبه، حيث إن جدي كان مضطرًا لتوسيع دائرة الضرب! والولد خلفها يتحرك يمينًا وشمالًا، حتى أوقع غطاء رأسها أو بالأحرى شده ابن عمي، وتعمد أن يمسك بها جيدًا يحركها يمينًا ويسارًا باتجاه الصفعات لتتلقاها بدلًا منه وهو يردد: «سامحني يا جدي آخر مرة!»

في هذا اليوم ضرب جدي «سعاد» أكثر مما ضرب ابن عمي الذي كان يصرخ بصوت عال مفتعل خلفها، بينما ملامح وجهه تكاد

تنفجر من شدة الضحك المكتوم! هبت سعاد واقفة وابن عمي خلفها يمسك بجلبابها، وأدارت وجهها فجاة ودفعته بعيدًا عنها قائلة: «اذهب عني يا ابن الكلب»! وخرجت مسرعة، فجرى خلفها، وجريت أنا أيضًا خلفه لنختبئ من جدي! وظللنا أكثر من أربعة أيام مختفين عن عين جدي، لا نجلس أبدًا في مكان هو فيه، حتى نسي ما فعلناه. وبدأنا نستعد لجريمة أخرى!

في وسعي أن أعرف من خلال تجارب قلبي من يكون صاحب الجسد المنهك الملقى أمامي الآن على فراش المرض، يستجدي الحياة! إن قلبه وقلبي سيعانيان ألم الفراق أكثر من ألم المرض بكثير! لقد كتبنا «دستورنا» الخاص بنا ووضعناه خلف «برواز» معلق، وهو موجود حتى الآن في صالون «البيت الكبير» أي بيت العائلة. اقتسمنا كتابته فيما بيننا، فكتب هو: «البشر بطبيعتهم ميالون للشكوى والتذمر. إن أيام سعادتنا قليلة وأيام تعاستنا أكثر!» ثم كتبت أنا: «فعلى قلوبنا أن تتأهب باستمرار لاقتناص السعادة وخلق الفرحة من العدم!»

رفعت صوتي ونظرت إلى عينيه المنكسرتين، وأنا أردد القانون الخاص بنا، وكأنني قرأت له تعويذة «البعث»، وألقيت له طوق النجاة! هل اختفى صفار وجهه وتبدلت ملامحه لتتخذ وضع السكينة؟ اقتربت أكثر وأنا أهمس له: عندما تشفى الروح يشفى الجسد!

لقد كان بانتظاري لأعيد إليه الروح..!

(١٣)

استيقظت من نومي حائرًا، ترى ماذا أرسل لك؟ هل تكفي: «صباح أنت فيه هو حقًا صباح الخير!» أم تفضلين أن أرسل لك صورتك التي افترشت سقف الغرفة! وما الجديد! إنها تملأ سقف روحي وجدران غرفتي معًا على الدوام!

نهضت من فراشي ولا زلت متحيرًا. وقعت عيناي على صورتي في المرآة، فابتسمت وأنا أداعب شعيرات بيضاء متناثرة في لحيتي. أعلم تمامًا أنها تروقك، لقد أخبرتني مرارًا أنها لك ولم أعترض. فلمن تكون إن لم تكن لك! هل أرسل صورتي! لكن ما الجديد في ذلك، فهي لا تفارق مخيلتك! لقد تركتُها يوم التقينا في عينيك. ألست أنا أحدهم الذي نسي صورته في عينيك؟ حذفت صورًا كثيرة التقطتُها خلال الدقائق القليلة الماضية، صورًا لما ارتديته وما أكلته وكوب الشاي ودخان سيجارتي الذي يرسم اسمك كدوائر في الهواء! لقد تمردتُ على كل هذه الصور وما زلت أسأل نفسي: «ماذا ارسل لك؟»

خرجت من بيتي هائمًا أتعثر في خطواتي وذكراك! أسير بجسدي في عالم، ويسبح عقلي وروحي في عالم مختلف. عالم يحمل أيامنا معًا! فجأة وقفت أمام سور كبير يحيط بمبنى ضخم ثم أخرجت هاتفي بعدما عرفت إجابة سؤال: «ماذا ارسل لك؟» انظري إلى هذا السور، لقد رسم أحدهم عليه وردة بقطعة جير حمراء، أعتقد أنه

طفل، فالخطوط متقطعة متعرجة تنبئ عن ضعف يدين، واهتزاز لقطعة جير بين أصابع صغيرة!

«أنتِ وردتي» كم مرة أخبرتك بهذه الحقيقة؟ وما الذي دفع الفتى للرسم على الجدران! كنت أعتقد أني فقط من ينبش الجدران وينقش التراب لأكتب عبارة تخلدنا، وتذكرنا دومًا بأنه كان هناك حياة! ما الذي أراد تخليده؟ وأي شيء جال بخاطره؟ كم يبلغ من العمر؟ هيا ضعي احتمالاتك، تخيليه واكتبي عنه، فأنت أمهر مني في ذلك! ما رأيك في قصة بعنوان: «الفتى الذي رسم على الجدَّار» إن هذا الصغير يشبهني. لا تضحكي! أعلم أني لا أعرفه، ولكني أعرف أنه يشبهني كثيرًا!

تعالي لتتأملي الوردة، انظري ماذا فعلت وردته في الجدَّار. هل تتذكرين شكل السور قبل أن تتوسطه الرسمة؟

لقد كان مساحة واحدة لا شيء فيها، كتلة خرسانية باللون الرمادي. أما الآن فقد تشكلت له معالم وأوصاف، يمين الوردة ويسارها وفوقها وتحتها! إن مجرد زهرة صغيرة رسمتها يد أصغر مرتعشة، قد فعلت به الأفاعيل! فما بالك بوردة زرعتها بنفسي وسط قلبي، وسقيتها بدمي، ماذا فعلت بي؟! لقد باعد بيننا المسافات والأحداث والبشر ومواقف كثيرة! جرحنا كبرياءنا الملتحفين به معًا، وعنادنا المصممان عليه! اقتربي أكثر وأكثر.. هل ترَين معي أن ساق الوردة منفصلة عن الزهرة؟ هذا الخط الفاصل الذي ضعفت يد الصبي عن استكماله هو

«غرورنا»! ورغم ذلك فقد أحببت غرورك! ورغم أنه كان سببًا فيما نحن فيه الآن!

لا يهم، فأنا مستمتعٌ به!

هل ستكتبين قصة تحمل نفس العنوان ؟

والآن إليك صورتي، فأنا كلما اشتقت إليكِ أرسلت لكِ صورة لي، رغم أنني «أحدهم الذي نسي صورته في عينيك!»

(١٤)

وضعت يدي على الجرس باب وانا لا أدري كيف سأخبرهم بهذا التطور السريع المفاجيء! لكن الأوقات الصعبة التي مرت علينا ستجعلهم يتقبلون الأمر مهما كان صعبًا! إنها الحياة تختبر مدى صلابتهم في مواجهتها بين الحين والحين. لا يوجد حل آخر، عليهم الرحيل خلال أيام قليلة جدًا.

لقد ظننت أن سفرنا إلى أحد دول الخليج بمثابة المصباح السحري الذي سيحقق كل آمالي، وما علي سوى أن أحك أي جانب من جوانبه حتى يظهر المارد الطويل، عريض المنكبين، الذي لا يستر جسده سوى قطعة قماش صغيرة تغطي عورته، مشبك اليدين أمام صدره ليقول: «شبيك لبيك عبدك وملك إيديك! لك عندي سبع أمنيات.. أُطلب وأنا أنفذ»! ولن أخاف منه فقد شاهدته في الكثير من المسلسلات والأفلام. ولن أختبئ منه تحت السرير أو في الدولاب، بل سأطلب فورًا قبل أن يختفي ولا يعود! سأطلب منزلًا يطل على البحر، لا.. بل أريده محاطًا بحديقة كبيرة «مزرعة» كما تتمنى زوجتي دومًا، إنه منزل أحلامها! لطالما أخبرتني بحلمها الصغير. نعم يبدو هذا الحلم صغيرًا! ألا نجد لنا موطنًا في هذا العالم الفسيح، وسط هذا الكم من الأبنية الكبيرة الشاهقة! فقط نريد بيتًا وسط مزرعة. لقد مرت أعوام كثيرة من عمرنا ولم نحقق حلمنا الصغير! لا بأس، سأطلب من

المارد مصنعًا صغيرًا يوفر لنا دخلًا كريمًا ويمنحني هدوءًا نفسيًا وقوة أثناء مواجهة متطلبات الحياة. لا يزال لي خمسة طلبات من المارد. حسنًا، سأحقق أحلامًا خمسًا لمن حولي، فأنا لا أطمع في أكثر من ذلك! أحلامي بسيطة، لكن الحياة فيما يبدو قد قدرت لي شيئا آخر!

فتحَتْ الباب وهي تنظر لملامحي، تفحصها، فقد وهبها الله قدرة غريبة على قراءة كل ما حولها! ثم سألتني بهدوء:

- ماذا حدث؟!
- لا شيء.

كذبت عليها.

- مستحيل أن لا يكون قد حدث شيء! أخبرني ما الأمر!
- فرع الشركة سيتم إغلاقه بسبب «الكورونا».
- وبناء عليه؟
- سننتقل إلى فرع آخر في مدينة أخرى!
- أيعني ذلك أننا سنبقى على قيد العمل حتى وإن كان متعثرا؟
- نعم سنبقى، لكننا سنترك كل ما اعتدنا عليه هنا. أكثر من عشرين عامًا من الذكريات البديلة والأشخاص على هيئة أقارب وأهل!
- وماذا لو صنعنا وطنا آخر؟

- لم يبق في العمر متسعٌ.

أجبتها وأنا أعلم أنها تتمزق من الداخل. كان لديها قدرة عجيبة على الانفلات من الأماكن والأشخاص والأشياء. أتذكر جيدًا المرات التي قررت التخلي عن بعض الأماكن في أوج شهرتها ونشاطها، قدرتها الغريبة على توقع الأشياء وقراءة المستقبل كانت تتحكم فيها، رغم أنها تتمزق أثناء عملية الإفلات، وأرى نزيف قلبها وأشعر به، لكنها من ذلك النوع الذي إذا اتخذ قرارًا تمضي فيه قدمًا ولا تلتفت للوراء بعد!

- بما أننا على قيد الحياة فهذا يعني أننا على قيد الأمل والمحاولة.
- ألن يحزنك مفارقة أصدقاءك؟ الشوارع؟ البنايات، ورائحة الهواء في هذه البلدة؟! أعلم جيدا أنك ترتبطين بشكل شروق الشمس ومغربها، على صوت الأطفال التي تلعب في الشارع وطريقة اصطفاف السيارات حول البيت، حتى وإن كانت بشكل عشوائي مزعج! أعلم أيضا كيف تبنين علاقات مع أشياء لا نراها ولا نشعر بها، فكيف ستتركين كل ذلك بهذه البساطة؟!
- سأتركه نعم، ليس ببساطة وليس لقلة وفائي أو انتمائي، ولكن لأني مضطرة إلى ذلك، وأعد أشيائي المحببة أن أحملها في قلبي! سأصطحب معي

ممشاي، وذلك المكان الذي كنت أجري فيه ولا يراني أحد، وحافظَ على سري فلم يشي بي، وصورة لذلك المقهى الذي كنت أكتب فيه بالساعات ولا أشعر بأن الوقت يجري بي! لن أترك «الجبل» الذي عشقته صيفًا وشتاءً ولم يمنعني عنه حر ولا برد! تلك الأوقات التي مضت معه وفيه! كنت أرى الناس يُسرعون ليهربوا منه، عند البرد والأمطار وأنا أسرع لأختبئ فيه! لن أنسى شجرتي التي رويتها بعرقي تارة وبدموعي تارة أخرى! والتي شهدَتْ كل ما طرأ على شخصيتي من تغيرات، ولا ما تركته في «بطنها» من ذكريات، وما سمعته معي من ألحان! أرجوحتي التي كنت أنازع الأطفال عليها، لقد أحببتها رغم صوتها المزعج!

أكملت واسترسلت:

- كنت ألتقط الصور لكل ما حولي، كأنني كنت متأكدة أن هذا اليوم سيأتي! كنت أرتبهم في حقائب قلبي إلى أن يحين موعد الرحيل!

قاطعتُها في أسى:

- إذا كنتِ تستطيعين فماذا عني أنا وماذا عن الأولاد؟
- هذه أيضا مهمتي؛ أن أجعلها سهلة عليكم، لا

تخش شيئا بجانبي.

- تكلفين نفسك فوق طاقتها!
- لن أكلف نفسي شيئا عندما أذكركم بما حدث معنا خلال عام كامل مضى! بمشاكله المادية التي واجهناها، وكيف طرحتنا أرضًا وألحقت بنا الأذى والضرر! لقد خرجنا من ديارنا وتركنا أوطاننا، واخترنا الغربة بمحض إرادتنا على أي حال!
- كلا، لقد أجبرتنا ظروف بلادنا عليها، ولولا هذا لما اغتربنا!

قاطعتها!

- لكن لم نصر على البقاء، ولم نحاول! ومع ذلك أنا لم أقل أنه خيارٌ خاطئ، ففي السفر سبعة فوائد، وقد تعلمناها كلها وزدنا عليها. وأصبحنا في أرجوحة الحياة، ترفع حنيننا للوطن ثم تهبط بنا لأرض الواقع البديل!

كانت تتحدث وكنتُ في عالم آخر لا أستمع لكثير مما تقول. فقد قذفتني أمواج الأزمة التي نمر بها إلى شاطيء الذكريات البعيدة، عندما كنّا صغارا ونُقل أبي إلى قرية من قرى الصعيد. عندما علم أبي بقرار النقل عاد إلينا منكس الرأس كما لو فعل جريمة تمس الشرف! وسرعان ما أدركنا -نحن أبناءه الثلاثة- سر طأطأة رأسه! فقد بدأت أمي في وصلة من اللطم والنحيب والعويل! واتهمت أبي بالتقصير في

عمله الذي أدى بدوره لنقله إلى الصعيد! فشلّ لسان أبي عن أن يقنعها بأنه -على العكس- قد ارتقى درجتين في وظيفته، وأصبح مديرًا، وأن النقل لا بد منه لأنه من لوازم الترقية وليس عقوبة وظيفية! لكن هيهات! باءت كل محاولاته بالفشل! لقد كان صوت أمي أعلى صوت في البيت، بل خرج إلى الشارع، وربما أسمع سكان الحي بأكمله! وهي تسأل أسئلة، وتجيب عليها بنفسها أيضًا! أذكر منها:

«أسافر وأترك أمي؟ آه من قلة «بختك» يا حزينة! كل النساء ستسافر مثلك للصعيد؟ لا، بل أنت فقط يا حزينة! كل الأزواج يُفرِحون زوجاتهم ويحافظون على سعادتهن.. إلا زوجك يا حزينة!!»

وبالتالي شعرنا أننا على شفا حفرة من نار لا مفر منها ولا منقذ! وتحولت حياتنا إلى جحيم فعلي! في اللحظة التي وصلنا فيها القرية، كانت قرية بلا ماء أو كهرباء، عدد البيوت محدود جدًا لكنهم في حاجة إلى مدير مدرسة. علينا أن نملأ المياة من الصنابير العمومية التي توجد عند مدخل القرية، علينا أن نستيقظ مبكرًا لنحظى بالمياه قبل الزحام! لم تعترف أمي بأن عددًا من قرى مصر في وسط الدلتا كان يواجه نفس مشكلة المياة التي نواجهها، بل أبت أن تُقر إلا بشيء واحد؛ هو أننا في فترة «عقوبة» لأن أبي موظف فاشل!

لا كهرباء، لا ماء، لا شيء من مقومات الحياة الضرورية! ينتظر الرجال والنساء «المركب» التي تأتي كل شهر من خارج الصعيد، تحمل الأشخاص الجدد وتحمل أيضًا بعض الأشياء التي يرسلها

الأهل والأقارب لذويهم! هذه «السفينة» هي نقطة الاتصال بالعالم الخارجي! فيما عدا ذلك، يخيم الهدوء على المكان.

تجتمع نسوة الموظفين بعد العشاء في بيت إحداهن، ويجلس الرجال في الخارج، في الهواء، إلا أمي، فقد أبت أن تندمج معه مصممة على أنها فترة قليلة وستعود إلى بيتها وحياتها وأمها! منعتنا في الأيام الأولى من اللعب مع بقية الأطفال، لكن لم تصمد أمام إلحاحنا وإزعاجنا فتركت لنا الباب مفتوحًا، نلعب وقتما نشاء ونعود وقتما نشاء. وكذلك فعلت مع أبي، تركته يخرج مع زملائه بعد العشاء، لكنها حافظت على عهدها لنفسها وبقيت وحدها. وكانت آثار هذه العزلة تنعكس علينا جميعًا، فنسمع ما لا ترغب أذن في سماعه ونرى ملامح وجه عبوس شرير جدًا، تفكر مائة مرة قبل أن تطلب منها طلبا!

عامان كاملان مرّا ولم يتغير فيهما شيء، لم تحنّ أمي ولم تلن أو تغير موقفها، حتى جاء أبي إليها أخيرًا منتشيًا سعيدًا يحمل سيف تحرير رقبته ورقبتنا من عبودية سوء المعاملة التي أحاطتنا بها أمي وغمرتنا مدة تزيد عن أربعة وعشرين شهرًا! أخيرًا تم إعادة أبي مرة أخرى إلى مقر عمله في بلدته ولكن بصفته الجديدة؛ عاد مديرًا!

عندما أذكر كل هذا، وأقارن حالتي مع حالة أبي، أتأمل كيف أن الله حباني بزوجة طيبة، إذا قلت لها سنذهب باكرًا إلى المريخ لما تحركت إلا لتجهز حقائب السفر! وما تفوهت إلا بالدعاء لله؛ أن يجعل المريخ موطنًا آمنًا سعيدًا!

إن النعم ليست دائمًا أموالًا أو ممتلكات مادية فقط، قد تكون النعمة في صورة زوجة حنونة صالحة كزوجتي!

اعترافات في زمن الكورونا

يقول فيلسوف قديم: رأيت بقايا سفينة، أغرقتها العاصفة، عائمةً على صفحة البحر، يتلامس بعضها ويتلاقى حينًا، ثم تهب الرياح فتفرقها شرقًا وغربًا دون أمل في اللقاء!

وذاك تمامًا مصير بني الإنسان في بحر الحياة: أن يصير متخمًا بغربة عن كل ما حوله، وخاصة عن نفسه، وهذا ما دفعني للمضي قدما في تنفيذ فكرتي على صفحات هذا الكتاب، ولا أعتقد أنها ستكون مألوفة لكم، لكن روعتها تكمن في تلك الغرابة الموسومة بها. أَسَمِعتَ يومًا عن شخص قد يدفع مبلغًا باهظًا مقابل رسم صورة له؟! أو عن آخر يطلب نحت تمثال على صورته، ليبرز ملامحه وسماته؟ هل رأيت شخصًا (مهووسًا) بتصوير نفسه؟ بالتأكيد نعم،وقد تكون رأيت الكثير، إنها نماذج موجودة بل ومنتشرة حولنا، هؤلاء الذين يسعون في الأرض تبجيلًا وتعظيمًا لذواتهم، وربما هم متعطشون للقاء يجمعهم بها! لكن هل سمعت يومًا عن شخص يطلب من أحدهم أن يقرأه ككتاب مفتوح، لأنه فشل في قراءته، فأسرع يطلب منا الدعم والمساعدة، كي نرده إلى ذاته ونعينه كي يتعرف عليها عن قرب؟

يعيش المرء منا ويموت وهو في حالة شجار دائم وخصام مستمر مع ذاته. يشعر أنها تورطه أو أنها سببٌ في فشله وتعاسته! فماذا لو أننا قربنا بين الإنسان وذاته ليتعرف كل شخص على حقيقته المجردة؟

كانت هذه هي فكرة الاعترافات. ولأنني أجيد قراءة الأشخاص فقد أعلنت عن تطوعي بذلك، وحددت المكان والزمان وعلى من

يرغب في لقاء نفسه والتعرف عليها فليتفضل. فحدث بالفعل أن لبى بعضهم دعوتي وتفضل طواعيةً ليسحب مقعده ويجلس أمامي قائلًا: تفضلي واقرئيني، لعلي أجد نفسي بين حروفك ونظراتك!

وأنا هنا الآن أنقل لكم ما حدث بيني وبينهم -حرفيًّا-، بعد استئذانهم في النشر.

-١-

صبرًا.. فلم يزل من الممكن أن يغدو كل شيء على ما يُرام! هكذا حدثت نفسي بعد معاناة دامت عدة أيام، اضطررت خلالها إلى مخالطة الكثير من الناس، وأن ألاحظ ماذا يفعلون. كنت ألاحظ -للأسف- بعيني فقط، وأستخدم أذنيّ -كأي كائن حي- في الاستماع! الأمر الذي أرهقني حد الإعياء! لدرجة أني خشيت أن تنعكس حالة الفوضى تلك على مظهري، رغم محاولاتي التعيسة لإخفائها!

لم أكن أمتلك ذلك الشعور المنتشر بمقارنة النفس بالآخرين! ولم أعلّق سعادتي أبدًا على حال الناس معي، بل كنت أحملها في قلبي أينما ذهبت. لذلك لم تهددني تلك المخاوف المزعومة التي يخشاها غيري، كالعزلة، والوحدة والفراق والغربة. ومترادفات كثيرة كَتَب فيها ولها كل من امتلك أدوات للكتابة، وصورها كل من امتلك القدرة على التصوير. غير أن كليهما لا يعني لي شيئًا. فكل ما اعتنقته واعتقدت به كان فكرة ناقصة لم أرغب يومًا في استكمالها، وهي: «الإنسان السعيد هو إنسان لا وجود له»!

كنت أيضًا مدركةً لحقيقة خاصة بي، هي: «إن جميع الأشياء تبدو لنا أجمل من الحقيقة»! لذلك تجنبت النظر لصورة الأشياء وفضلت رؤيتها على حقيقتها! وحتى يحدث ذلك، عليّ العودة وبسرعة لحالتي الطبيعية، والتي تستلزم فرارًا من كل ما هو حولي،

إلى كل ما هو داخلي. فجمعت أغراضي وقررت الرحيل لساعات ألتقي فيها بنفسي، ثم أعود أدراجي. وقبل أن أضع يدي على الباب لأفتحه، ظهرت أمامي وهي مستعدة للخروج معي! الأمر الذي أدهشني كثيرًا! فلم أفكر يومًا في أن يشاركني أحد لقائي اليومي بنفسي وقلمي! لكن علامات الإصرار على وجهها لم تدع لي مجالًا للرفض، فأخذت عليها موثقًا أن تجلس في صمت، وأن تتركني ونفسي في هذا الموعد الذي حُرمته ليوم مضى، فوافقت، وانطلقنا معًا.

لا أخفيكم سرًا، إنني شعرت ببعض التوتر كما لو غزا جيشٌ محرابي، أو نزل ركاب قطار في ضيافتي! لكن ما هي إلا لحظات حتى زال شعوري بالقلق، وحل مكانه شعورٌ غامضٌ بالسكينة والراحة، كتذوق طعم «ألا تكون بمفردك»! ويبدو أن مذاقه سيكون طيبًا ويروق لي، قدر إعجابي بمذاق «عزلتي» تمامًا! أكذب إذا قلتُ: قلّما تواتيني هذه الأفكار الغريبة! فأنا أعجُ بروح المغامرة المتشبعة بكل ما هو غير مألوف! لقد قررت أن أترك قلمي لأتأملها!

ها هي تجلس أمامي صامتة، ملتزمة بعهدها معي، تداعب وريقات روايتها بأناملها الرقيقة، ولا تعلم أنني هنا أنشر سعادتي وبهجتي بقربها، وأسأل نفسي كيف مرت أعوامها العشرون سريعًا دون أن أنتبه إلا لبعض الشعيرات البيضاء التي نثرت ظلالها على رأسي؟! قد تبدو في هدوئها نموذجًا غير مفضل للكثير من الأمهات، لكنها كانت نموذجي المفضل! لم يشغل بالي يوما هدوؤها وحركتها البطيئة، فلم أكن أنوي إلحاقها بمارثون العدو لهذا العام! قد تبقى

صامتة طيلة اليوم، وحين تتحدث يرن صوتها العذب في أذني -كأغنية مفضلة- ببضع كلمات، ثم تعود للصمت مرة أخرى! أحترم صمتها، بل أحبه! فعيناها كانت تجيد الحديث كثيرًا، فلا تفرض نفسها عليّ ولا على غيري. كنسمة عابرة إذا أردت أن تستمتع بها فعليك أن تقف احترامًا لها!

ثمة جانب متوحش في الأبوين، حين يتعاملان مع أبنائهما على أنهم خُلقوا من أجلهما! أو أنهم مصدرٌ من مصادر القلق، وبالتالي فإن عليهما إخماده قبل أن يندلع ويحرق الجميع! لا أعلم سر الحرب الخفية بين الجيلين، إذ لكل جيل حياة لم يعشها الجيل الآخر. وثمة عوالم خفية خاصة بكل جيل، لا يطؤها جيل غيره. لم لا نواجه الحقيقة كاملة! هل يشكل استقلالهم أو اختلافهم عنا خلافًا؟ لمْ أحاول قط أن أكتب عن تلك العلاقة المعقدة، أعلم تمامًا أن كتابة روايةٍ عن «عشق ممنوع» أو»فراق محتوم» أسهل بكثير في سردها ولمس حقائقها من رواية سُطّرت فيها ملحمة باهتة بين الآباء والأبناء! ولعلك أيها القارئ النهم ستدرك الآن حقيقة ما قرأته خلال مسيرتك الأدبية، وكيف أنك لم تصادف كثيرًا ما يصطدم بهذا الجانب القصصي. أنا لست خائفة، بل أكتب لأخلد تجربتي، ولكني لا أعلم إن كانت هناك تقنية معينة يجب علي اتباعُها، وأنا أطأ ذلك الموطئ الشائك؟! هل من أبجدية يجدر بي أن أتعلمها، وأنا أنبش بقلمي في حفرة «الآباء والأبناء»؟!

لا تزال ابنتي جالسة أمامي كزهرة حالمة في بستان شبابها،

تقُلب صفحات الكتاب النائم بين يديها في هدوء خشية أن يصدر عنه صوتًا يزعجني، ولا تعلم أني هنا أرسمها! أطيل النظر إلى روحها مبتسمة راضية تمام الرضا عن كونها بجواري. إنها تشبهني كثيرًا. كأنما تطابقت ملامحنا فلا يخفى على أحد أن ذاك الغصن من هذه الشجرة! إلا أننا مختلفان من الداخل كثيرًا. لقد تعمدت ذلك وعنيته أثناء مسيرتي التربوية معها. إذ لماذا أحملها على أن تكون نسخة طبق الأصل مني؟ ألا تكفي نسختي! والأهم، هل أنا راضية عما أنا عليه؟!

لم أفكر يومًا أن أخوض معركة تكسير العظام! أو أن أقف كالعامل على ماكينة التصوير، كل همه أن تكون النسخ طبق الأصل، ولا يلتفت للنسخ المشوهة التي غافلته واندست بين الأوراق! الفارق بين شخصياتنا كبير جدًا، ولا يزعجني ذلك أبدًا، بل يدفعني لخلق حالة من التوازن بين قلبينا. أحترم خصوصيتها، فتحترمني دون مجهود ودون أن أطلب منها. تقدّر اهتماماتي لأنني لم أفزع لاهتماماتها الصغيرة ولا حتى التافهة يومًا! إنها باختصار تُكملني دون أن تدري! ليس مهمًّا أنني لا زلت أعد طعامها حتى بعدما بلغت العشرين، أو أنني أقشر لها الفاكهة بنفسي. لا يهم إن كانت تحادث صديقاتها وتقضي وقتًا طويلًا على هاتفها فأنا أحبها مع كل ذلك! ولعلي كنت لأقضي وقتًا أطول منها على الهاتف لو كان موجودًا وأنا في سنها! لعل أمي ما كانت لتسمح لي، مما كان سيشعرني بالغضب أو ربما الظلم والقهر أو... لكن أنا هنا الآن متفهمة طبيعة زمانها، أشاركها فيه ما استطعت! ويكفي ما حُرمنا منه في صغرنا!

إن هذه الأسطر المعدودة ليست لوصف ابنتي، فوصفها يحتاج إلى مجلدات وشروح عريضة! وإنما هي لوصف مشاعري الفياضة من قلب عجز أن يحبسها أكثر من هذا، فتفلتت منه واستحالت ماء سقيا ورِواءً لكل متعطش للحب المريح!

لقد أوشكَتْ على الانتهاء من كتابها، وأوشكت أنا أيضًا على الانتهاء من سطوري. عيناها التائهة بين سطورها، ويداي التائهتان بين الحروف تُخبرانك عن طبيعة علاقتنا!

-٢-

كالذي يجلس على كرسي الطبيب النفسي أملًا في أن يعرف عن نفسه ما يساعده على حبها أو التعايش معها، جلس أمامي! لم يتحدث عن سبب وجوده ولم أسأله، فقد كان مجرد ملبٍّ لدعوة عامة طرحتها على الدائرة المحيطة بي. من أراد أن أرسمه من الداخل فليخبرني، وكل ما عليه هو أن يجلس أمامي صامتًا لبعض الوقت. شرطي الوحيد في رسم اللوحة المجانية هو «الصمت»! أما بعد الانتهاء منها يمكنك قبولها، كما يمكن أيضا رفضها بكل ما أوتيت من رغبة في التملص من حقيقتك!

ينص عقدنا -غير المكتوب- على أن أقرأك بأبجديتي كما أراك، وليس كما تحبُّ أن ترى نفسك! فإن أردتَ تمجيدًا لذاتك فاكتب

سيرتك الذاتية وضمّنها بمحاسنك وميزاتك التي تتفرد بها وحدك دون بني البشر! أما وأنت الآن أمامي، فعليك السير حسب قانوني واتباع أمري، ثم عليك للمرة الأولى أن تواجه نفسك كما أراها! عليّ أن أعترف بشجاعتك، فقلّما نجد مِقدامًا لا يخشى أن تُنبَش أعماقه. ولعلّها رغبة في المواجهة باعترافات صادقة أخيرة في زمن الكورونا!

سألني قبل أن نبدأ:

- هل يجب اتخاذ موضوع معين قيد الحوار؟
- كن أنت كما تريد. كن مرتاحًا.

أجبته.

- هل سيطول الوقت؟
- ممنوع الأسئلة!

عقد يديه فوق صدره وأخذ نفسًا عميقًا وكأنه لم يتنفس من قبل. بدا أكبر من سنه، شعيراته البيضاء القليلة جدًا تخبرك بمعارك حياتية طاحنة! لم يهتم بمظهره أمامي، لم يبدل حتى ثيابة التي غطاها قليل من الغبار وكثير من الإنهاك، لم يكن يهتم أبدًا بمظهره أمامي! كان من المريح له أن يكون معي كما هو عليه حاله، وما عدا ذلك فشكليات! أطلت النظر إليه. ربما مشتاقة! فقد مر زمن طويل جدًا على آخر لقاء بيننا! إلا أن تواجدي بعينيه لم يتأثر بغياب المدة! جميلة جدًا تلك العهود الملزمة وغير الملزمة!

نحن غرقى يا عزيزي.. لا زلنا عالقين في ظلام ذاك البحر! ترفعنا الأمواج وتخفضنا كيفما شاءت. تقربنا من بعضنا البعض

وتبعدنا كذلك. لا حيلة لنا! وها أنا أقرأ أول سطر فيك: «لم أزل على قيدك أحيا، أراكِ في كل الوجوه! ورغم الضجيج الذي أحيا فيه، فإنك في بقعة ما داخلي! يراك بعضهم نورًا يضيء محياي، ويراك البعض الآخر حزنًا يكسو ملامحي كلّما تذكرتك! أما أنا فأراك الحقيقة الوحيدة في هذا الوجود الكاذب!

أما السطر الثاني فكان معاناتك مع نفسك. وإياك أن تكذب أو أن تختلق شخصًا وهميًّا تعيش فيه! أنت تعاني من كل اتجاه وفي كل اتجاه! أتدري؟ سأقص عليك قصة طريفة، عنوانها باختصار «غرابة في عقلي» لكاتب يدعى «أورهان باموق»! يحكي لنا عن شاب يُدعى «مولود» رآى فتاة فأحبها من أول نظرة، وكان ذلك اللقاء الأول والأخير بينهما! لم يملك من الشجاعة والإقدام ما يؤهله للاقتراب منها، ولذلك غادر البلدة وقرر أن يراسلها! ظل الفتى يراسل حبيبته لسنوات، ثم اتفق معها على خطة للهرب والزواج ورتب كل شيء بدقة، وسارت الأمور كما خطط لها تقريبا. وصل إليها وأمسك يديها في الظلام الحالك وانطلقا في سيارة قريبة إلى مدينته. وعندما نزلت حبيبته من السيارة ورآى وجهها بوضوح في هذه الليلة للمرة الأولى، كانت مفاجأته عظيمة عندما اكتشف أنها ليست هي! هل تم خداعه! ومن الذي خدعه؟ لكنه واصل السير إلى المأذون، لم يتراجع، ولم يكشف لنا الكاتب عن سبب استمراره، لكنني اكتشفته! وفي الحقيقة هو لم يُخدع، فقد كان يُرسل رسائله للشخص الخطأ!

هذه النهاية تشبه إلى حد كبير ما ستنتهي إليه أنت أيضًا!

ستشارك واقعك ومستقبلك مع من لا يشبهك، من لا تجد نفسك في عينيه، ومن لا تسمع صوتك بين شفتيه، أو سينتهي بك وحيدًا!

أما السطر الثالث والأخير منك: كُن أنت وما تريده، ولو ليوم واحد! ستمضي بك الحياة أسرع مما توقعت، فقف في مواجهة نفسك وخذها بقوة! إلى متى ستظل تبحث عمن تشاركه أحلامك وضحكاتك الساخرة وغناءك؟ ماذا تفعل بتلك الصور التي تلتقطها لكل شيء حولك؟ لمن سترسلها؟ كوب القهوة، شطيرة الجبن، طريقك في الذهاب والعودة، وأماكن العمل! من سيهتم بحذائك الجديد! لمن سترسل صورة قميصك وشعرك، ولحيتك قبل أن تذهب إلى صالون الحلاقة، وبعد الانتهاء منه؟ ألا زلت تريد مني أن أرسمك؟ أن أكتبك كما أراك؟ قم وعد من حيث أتيت، فإنك «نصٌ» غير قابل للقرءة!

-٣-

أرهقتني الدقائق الماضية التي قضيتها مع صاحب الاعتراف السابق! فقررت أن أكتفي بهذا القدر اليوم فضغطت زر إقفال الحاسوب بعد أن حفظتُ ما كتبته. ولملمت أوراقي، وقبل أن أضعها في حقيبتي الجلدية السوداء القديمة، انتبهت لها تسحب الكرسي

المقابل لي وتجلس متوترة لدرجة أنني رأيت تشنج عضلاتها قبل ملامحها، وطبقة من الدموع تغلف عينيها وتأبى أن تتساقط! تداري عينيها كلما أوشكت أن تتلاقى نظراتنا، كما لو كانت تريد أن تخفي عني شيئًا تعلم جيدًا أني سأكتشفه خلال ثوان معدودة!

لم يترك لي مظهرها اليائس خيارًا للتأجيل، فأعدتُ كل شيء إلى ما كان عليه قبل دقائق قليلة من وجودها، وابتسمت لها لعلي أطمئنها، لكنها لم تبادلني الابتسامة ولم تتكلم! وددت لو أخبرتها أني مرهقة حقًا وأن من جلس قبلها استنزفني بالكلية! وودت لو أختفي أسبوعًا أرمم فيه نفسي من جديد! رفعت نظري في وجهها لأستجديها أن تنطق، فتلاقت عيوننا، وعندئذٍ اكتشفتُ ما لم أكتشفه من النظرة الأولى! إن هذه المرأة تشبهني كثيرًا! كيف لم ألاحظ هذا بمجرد رؤيتها؟! لقد كانت تُدرك التشابه بيننا، بل يبدو أنها اكتشفته أسرع مني!

ثمة معنى للأشياء أعمق بكثير مما نعرفه، تشابهٌ فظيع بين ملامحنا وأرواحنا يُشعرنا بالرعشة تجاه منطقنا ومعتقدنا في الحياة! إن الشيء الوحيد الذي لا زال مسيطرًا على قدراتنا، وهو ما يفرقنا عن غيرنا، هو «القدرات الغريزة». فجميعنا لديه نفس القدرات والملامح والتكوين، إلا أننا أيضا لدينا قدرات غريزية مختلفة، وهي ما تعطي لكل منا سمته الخاص به، فنبقى مختلفين جدًا، رغم التشابه الكبير الذي يجمعنا! فغريزة الشخص هي ما تجعله حالمًا أو حاقدًا أو مهووسًا بما لديه وبما يريد أن يكون لديه! هذه الغريزة هي ما

تجعلنا نتلقى مستقبلات غيرنا بشكل مختلف! فتجعل كيمياء فلان تتفاعل بشكل متجاذب مع فلان، وبشكل متنافر مع آخر! تجعل رائحة أحدهم كشبكة نسقط فيها ولا نستطيع الخلاص، ونفس الرائحة لنفس الشخص تكون سببًا في بعد أحدهم عنه مدى الحياة!

في الحقيقة، إن النفس البشرية غريبة جدًا، يجمعها الكثير من المتشابهات، والقليل الذي يفرقها، يجعلها تبدو متنافرة كما لو أن لا نقاط تجمعهم أبدًا! وأعتقد أن السبب في ذلك هو «الغريزة». فهل يولد إحساس بدون حافز؟ وهل تنشأ ظاهرة بدون سبب؟ وهل تُبنَى قاعدة بدون معطيات؟ إن الإمكانات العادية للبشر تختلف باختلاف احتياج كل واحد منا وغريزته!

طال الصمت بيني وبين شبيهتي، فقد كنت أحاول أن أكتشف غريزتها التي تُفَرّقها عني فلم أستنطقها، لكنها تكلمت من تلقاء نفسها!

- أنا مريضة «مثالية»! أو دعيني أكون صادقة معك تمامًا: أنا متهمة بها! أصبحت مادة للسخرية والتندر. حتى أني أصبحت أتعمد الفوضى وعدم الجدية! ورغم ذلك، مع أول تصرف لي بقليل من الاهتمام، تتعالى أصوات من حولي، خاصة المقربين مني باتهامي بـ«المثالية»! سبب لي ذلك إلى تشويشًا في أفكاري وعدم معرفة ما أريده. هل

أريد أن أكون أنا رغم اعتراض وسخرية من حولي أم أكون ما يريدونه مني! طوال الوقت أنا في حالة عتاب ولوم مع نفسي، على ما كان ينبغي أن يحدث وما حدث فعلا! تحولت إلى شخص غير راض عن نفسه أبدًا، لا أتلمس لها عذر ولا أبحث عن حجج لتبرئتها! بل أتفنن إيجاد ما يدينها أكثر! أنا لا أريد أن أكون «أنا»! فكيف لي أن أصبح شخصًا آخر غيري؟!

سألتها:

- ماذا لو أن شخصًا يخشى الأماكن المرتفعة أو المغلقة؟ أو يخشى ركوب الطائرة أو السفينة مثلا؟ هل هذه من وجهة نظرك غريبًا؟
- لا!
- لماذا لا يُعد ذلك غريبًا؟ بل اتهامًا؟ لماذا نُقدِّر مخاوفهم ونتفهمها؟
- لا أعلم لماذا، ولكننا نتعاطف معهم ونحترم مخاوف الناس فيما يتعلق بـــ...

قاطعتُها:

- فيما يتعلق بالمتعارف عليه.
- صحيح.
- لكن ماذا لو قال أحدهم إنه يخشى صوت «نقر»

الطائر على النافذة؟

- ربما يكون ذلك مدهشا للبعض، مدعاة لسخرية البعض الآخر.
- بالضبط، لأننا لا نملك التخيل الكافي لمخاوفهم! نحن لم نحترم مخاوف شخص من أماكن مرتفعة أو مغلقة، بل كل ما في الأمر أننا احترمنا تخيلنا -نحن- لمخاوفه، قدرتنا على استنتاج سبب مقنع لتلك المخاوف، ولكن عندما نفشل في ايجاد سبب لتلك المخاوف، فإننا نسخر منها! إننا عادة نحترم أنفسنا فقط، حتى في قرارات الآخرين ومخاوفهم وكل ما يتعلق بهم! وهذا ما يحدث معك تمامًا، إنهم لا يرون سببًا كافيًا، أو مقنعًا في إصرارك الزائد على الكمال. يرون الحياة أحقر من أن نعيشها ونحن نلهث سعيًا وراء المثالية، في الوقت الذي يجدون فيه مائة سبب للسعي وراء المال، الحب، الفوز، وأشياء أخرى كثيرة... لذلك، وفي بعض الحالًات، علينا الأختيار بين ما يسعدنا وما يسعد الآخرين!

أكملتُ:

- أدري أن الساعين للمثالية، لا يهدؤون حتى يقنعوا بها من حولهم! تظل هذه معضلة كبرى بالنسبة إليهم، فهم يرغبون في الحصول على الدرجة النهائية

في كل المواد، وخاصة مادة «رضا الآخرين»! لا يقبلون فيها أي نقص علامات. وهذا سر انزعاجهم!

- أعتقد أن كلامك صحيح، فأنا أبحث عن مدى رضاهم كما لو كنت أقيّم أعمالي في عيونهم!

- هذا لأنك تخلطين بين حبك للمثالية والتعامل معها على أنها غريزتك للبقاء والتعايش، وبين أنك تفعلين ذلك فقط لإرضاء البعض. عليك أن تفرقي جيدًا بين غريزتك التي تميزك عن غيرك، وبين ما هو مصطنع وليس غريزيًّا لديك، ووقتها سترين الأمور بشكل مختلف.

- أعترف لك أنني عندما أتيت إليك كنت أعتقد أنني سأسمع كلامًا مكررًا سمعته كثيرًا على هيئة نصائح طلبتها أو أُهديت إليّ، بأن أتجاهل من حولي وأفعل ما يحلو لي، أو أن عليّ تغيير نمطي في الحياة وعليّ التهاون والتساهل مع أحداث الحياة والأشخاص وأن آخذ الأمور بشكل أقل جدية واهتمام. لم يوجهني أحد للنظر في دوافعي، لم يلفت أحدهم نظري لأفتش في «غريزتي» وما فيها.

- وأنا أعترف لك أنك «ملهمة»، بمجرد النظر داخل نفسك، ستجدين حلًّا لمائة مشكلة، أقلها ما جئت

تبحثين عنه!

قامت مبتسمة لتحدد «غريزتها» في الحياة، وتركتني أنا أيضا وقد قررت البحث عنها!

-٤-

رتبت أوراقي بعناية على الطاولة، فتحت الحاسوب وجعلته مستعدًّا للكتابة، مثلي تمامًا، وجلست أنظر إلى المقعد الخالي أمامي. لم يأت أحد حتى الآن، رغم أن عرضي لا يزال قائمًا ودعوتي لقراءة أحدهم وكتابته لا زلت قائمة.

طلبت فنجانًا من القهوة لعله يخفف من حدة الملل الذي بدأ يتسرب إلى داخلي. تصفحت كتابًا كنت أحضرته معي، وأنا أسأل نفسي: هل أخطأت في طرح هذه الفكرة؟ وقبل أن أجيب على سؤالي، وجدته يسحب مقعدًا ويلقي السلام ثم يستقر جالسًا أمامي! وقفت القهوة في حلقي هنيهة، حتى استطعت أن أتغلب على المفاجأة، ثم بلعتها وبلعت ريقي بعدها عدة مرات قبل أن أرد تحيته:

- حيَّاك الله سيدي الرئيس!

تأملته جيدًا وأنا أبحث عن مهرب ينقذني من قرائته، فما الذي فعلته بنفسي وماذا ينوي هذا الرجل أن يفعل بي؟ هل قرر أن يعبث معي!

من غير المعقول أن يترك أشغاله ومهامه ويأتي إلي في هذا المكان المتواضع الذي أجد فيه راحتي مع نفسي!

كان هادئًا مبتسمًا أنيقًا وسيمًا رغم تخطيه الخامسة والسبعين من عمره -على ما أعتقد-! بدلته الرمادية الحديثة التصميم والتي تشبه القميص وظل «الصديري» الذي يختلف بدرجة واحدة عن لون «البدلة»، بحيث أكسب ظلًا خفيفًا على القميص الأزرق الذي يرقد تحته بسلام حذاء بني يخبرك عن مدى اهتمامه بآخر صيحات الموضة وجديد الألوان! شعره الأبيض الممشط للوراء في صمت وانصياع تام لأوامره، وهل يملك غير ذلك! تلمع عيناه رغم التجاعيد التي تُحيط بها.

ترهلات وجهه والهالات السوداء تحت عينيه تفضحان عمره وتخبر الجميع أن عافيته ليست بخير، وأن قوته آخذة في الاضمحلال!

عاد بظهره مستندًا على مقعده واضعًا ساقًا فوق ساق، ثم قال:

- هيا اقرئيني واكتبيني كما ترين!

نطق جملته بصوت منخفض واستسلام جميل! أغمض عينيه لهنيهة ثم عاد وفتحها وهو يقول:

- هل تستطيعين قراءتي وأنا مغمض العينين؟

أجبته وأنا لا زلت أعاني من ذهول المفاجأة:

- من الأفضل أن تبقي عينيك مفتوحتين.
- سأحاول.

قالها في ضعف!

- سيدي الرئيس.. أول سطر فيك أخشى أن يكون مؤلمًا بقدر المرض الذي يلاحقك، وتلاحقه الأطباء في أنحاء جسدك،إنه الوجع الممتد لأعماقك!

أكملت:

- لقد كنت قبل أيام قليلة تملأ الدنيا بحركتك وصوت ضحكاتك، لم تعتقد أنك معرض للإصابة بفيروس «حقير» من وجهة نظرك لكنه يا سيدي خطير! أما الآن فلقد صرت -على حد ظني- فريسة له. لا تعلم ما إذا كانت هي نهاية الطريق أم أنه لا زال في العمر مزيدا

بلعت ريقي مجددا ثم واصلت الحديث:

- لقد خجل الأطباء منكم سيدي وخشوا أن يتفوهوا بما قد ينهي حياتهم المهنية أو حياتهم عمومًا!
- ألا تخشين أنت على أي منهما؟!
- سيدي أنا لم أطلب منكم المجيء والجلوس أمامي. أنتم من سعيتم لقراءة أنفسكم وأعتقد أنكم في حاجة إلى ذلك، إذا من الأمانة المهنية أن لا أقول

إلا صدقًا.

لم يرد وتركني أكمل قراءته..

- لا أدري هل تريد مني أن أشرح بالتفصيل أم علي الاختصار؟

سألته وأنا أتابع حديثي فلم أكن أريد إجابته!

- وجب عليك سيدي أن ترتب أوضاعك، وأن تخبر نائبك بأسرارك، وأن تلزم فراشك.

تململ في مكانه، وحاول أن يبدو كما لو كان يُعدّل من جلسته، إلا أن عينيه الزائغتين وشفتيه المرتعشتين أخبراني بالمزيد! بلع ريقه وسألني:

- هل من عودة؟

خرجت حروفه مرتجفة مشتعلة بلهيب الغياب المتوقع!

«إن الموت يلاحقنا، يحيط بنا على أشكال عدة، ولكننا نتعمد تجاهله وصرف أبصارنا في كل اتجاه بعيدا عنه»

أجبت:

- أعلم جيدًا أنكم تتخبطون بين ماضيكم ومستقبلكم، تتعثرون في خطوة ذهاب وأخرى إياب. تجتاحكم نوبة تقلبات هي الأخطر من نوعها على مدار حياتكم! وربما تكون هي الأخيرة.

ويبدو أن كلامي وقع في أعماقه مسببًا انفجارًا هائلًا! إنه يشعر بشيء ما غامض يسحبه بقوة نحو الخلف! يرى نفسه في مرآة عينيها

الشابتين كأنه في نفس سنها تقريبا، شعره شديد السمرة، لم تزحف إليه الشيبة البيضاء بعد! ماذا لو رُدّ إلى ذاك العمر! هل سيعود لما هو عليه الآن؟! أم سيفضل لو أن يكون في مكانها تاركًا العنان لقلمه الرشيق أن يكتب ما ينبشه في أعماق الآخرين، كالذي يعبث بالموتى بعد دفنهم!

واصلت حديثها:

- لقد قضيتم عمرًا تتنقلون بين ممارسات الأحزاب السياسية باحثين عن «مكان لكم» وليس عن «ذاتكم»!
- (قضيته متسلقًا كقرد!)، قلتها في سرها! أكملت:
- تنقلتم من حزب إلى آخر، ومن مناصب أصحاب النفوذ إلى مناصب أصحاب السلطة، وكان كل ما يشغل بالكم أين ستستقرون، لكن لم تسألوا ذاتكم: كيف؟!

لم يعلق متعمدًا، يريدها أن تسترسل، وألا ينقطع فيض ما عندها. كانت واثقة وكان خائفًا!

- نشأتك كانت نشأة قروية بسيطة، لم تستسلم لها، فانقلبت عليها بكل ما أوتيت من طموح ورغبة في إنهاء حالة حياة والبدء في أخرى مختلفة عنها تماما. أنت سيدي الرئيس لا تنس ماضيك وتحب حاضرك وتخشى المستقبل ، رجل ما بين استحمامه في

«طست» وسط بيته المبني بالطين وبين الاستجمام على شاطئ «بلاج دو راسو» في فرنسا صنع عالمًا خاصًا به ونجاحات هائلة لكن نفسه لا زالت تطمح إلى شيء لا يعلمه

أكملت:

- روح تائهة بين لعب الشطرنج بقطع خشبية نحتّوها مع أقرانكم بأيديكم صغارًا، كأقصى ما امتلكتم من أدوات الترفيه، وبين اقتناء الخيل العربية الأصيلة والتجول في «يونيفرسال ستوديوز» بكاليفورنيا! بين هذا و ذاك مضى العمر ولا نملك إعادته أو طلب التمديد فيه! سيدي لقد فاجأتني بزيارتك لكن المفاجأة لن تمنعني أن أقول لك: اذهب وابحث عن بعض أخطاء الماضي البعيد والقريب وصحح منها ما استطعت! لعلك تتخفف من حملٍ لهثت عمرك وراءه، كي تحمله، ولم تترك لنفسك وقتًا كافيًا للسؤال الأهم: وماذا عن النهاية؟

قام من مقامه قبل أن أستكمل حديثي ولا أدري هل ذهب ليبحث عن أخطائه فعلا أم أنه خرج ليدخل بعده رجال الأمن!

-٥-

ثلاثة أيام لم أفارق السرير إلا لدخول الحمام وللوضوء والصلاة. تعبت جدًا من هذه الراحة المفروضة الملزمة! لا أقوى على مجرد الوقوف، وأشعر بإعياء شديد لمجرد التفكير في مغادرته، فالتعب المصاحب لـ « كوفيد ١٩ « تعبٌ من نوع خاص، فهو يشعرك أن جسدك تم طحنه بالكامل ثم نُثِرَ في الهواء، وعليك أن تركض وراء تلك الذرات كي تعيدها إلى مكانها، فتعود حينها مرهقًا تتصبب عرقًا ولا قوة لديك. أنت مجرد جثة متهالكة تنبض بالألم!

ثلاثة أيام من التأوهات، ولم ترحم الكورونا ضعفي، ولم ترفق بحالي. حرارتي تأبى الدخول في أي مفاوضات وتصر جدًا على موقفها ثابتة راسخة لا تتزحزح! أتعذب في صمت، وأمارس تسلطي، وديكتاتوريتي المفرطة ظاهرة على ملامحي حتى يبدو للجميع كل شيء في وضعه الطبيعي! حتى حدث ما لم يُخطط له. لقد تعطل «مكيف الهواء" الساعة الواحدة صباحًا، مما يعني أنه سيظل على وضعه «الميت» هذا -على الأقل- حتى الساعة التاسعة صباحا وربما أكثر!

كانت ممارسة التأقلم والتكيف إحدى هواياتي القديمة المفضلة! فقد فعلتها في أوضاع صعبة وأخرى مضحكة! ليس لشيء سوى أني أردت ذلك. أحب ذلك الوقت الذي أشعر فيه بمدى قوتي، أستمتع وأنا

أرغم الأشياء وأرغم نفسي معها على الدخول في حالة من حالًات القبول والتوافق، حتى وإن كانت ضد ما أريد، بل ومعاكسة تماما له! لقد أدمنت حالًات العناد المستمرة التي تمنحني سلطة الانفراد والقدرة التامة على التخلي والإفلات وممارسة الغرور في أبهى حلله!

ومن القصص التي مارست فيها التأقلم بتلذذ ولا زالت عالقة بذهني، قصة «عاطف»! وهو صبي صغير في التاسعة من عمره، توفي والده وهو في السادسة، وبعد فترة قصيرة تزوجت والدته، فقرر عمه أن يضمه إليه رافضًا بكل ما أوتي من مبادئ أن يتربى ابن أخيه عند زوج والدته! فأخذه ليعيش معه وأيضًا ليعمل معه فلا ضرر من الاستفادة من يتمه ومن احتياجه! وهي أيضا طريقة لتعليمه كيف يكسب قوت يومه وأن لا يكون عالة على أحد! «صبي مكوجي» صغير، كل مهمته أن يتنقل بين العمارات والشقق في الحي، يسأل أصحابها عن ملابس للكي!

في اليوم الأول لعمل «عاطف» وفي بداية مهمته الخاصة، بجمع الملابس من سكان الحي بالإكراه إلى محل عمه! دق جرس بابي في السادسة صباحًا، ليس هذا ما أزعجني في الحقيقة، بل يده التي لم تُرفع من فوق زر الجرس حتى فتحت الباب! لقد تركت فراشي فزعًا لا أتوقع إلا كارثة قد وقعت! فتحت الباب، وعيناي في مستوى نظري، ماذا! مستحيل أن يكون الطارق قد ذهب بهذه السرعة، فقد كانت يداه على الجرس حتى فتحت الباب! أدرت رأسي يسارًا، فوجدت كائنًا قصيرًا نحيلًا ذا عينين واسعتين مستجديتين! قُتلت كل العبارات

والشتائم التي كنتُ قد استحضرتها، ولم أنطق سوى بـ «ماذا تريد يا ابني؟» رد بكل ثقة، كما لو كان يدق جرس بيتي في ساعة عادية من اليوم:

- عندك مكوة؟

لم أفهم ماذا يريد. هل يريد «مكواة « يكوي بها ملابسه؟ هل لديه موعد هام! مقابلة عمل في الصباح الباكر وخربت مكواتهم؟ سألته بهدوء وراءه انفجار وشيك:

- أي مكواة يا ابني؟

رد بكل أريحيه:

- أعني ألديك ملابس تريد أن تكويها؟ أنا عاطف ابن أخ «سعيد» المكوجي. أجمع له الملابس من الزبائن!
- هل عمك في المحل الآن يا عاطف؟

سألته وأنا أضغط على أسناني غيظا!

- لا، عمي نائمٌ الآن.
- طبعًا، عمك نائم الآن. كل الناس نيام الآن يا عاطف، إلا أنا، لسوء حظي! اذهب يا عاطف ولا أريد أن أرى وجهك هنا مرة أخرى!

قلت عبارتي وصفعت الباب، ثم عدتُ إلى السرير في محاولة فاشلة لأعود للنوم. لكن هيهات! لم أستطع مجرد الاقتراب من غفوة بسيطة قبل الاستعداد للذهاب للعمل. عانيت بعد ذلك مُرَّ المعاناة من عاطف! فقد كان يأتي في كل الأوقات، لا يمل! ظننتُ في

البداية أنه يتقصدني إلا أني وجدتها شكوى عامة من كل سكان الحي! حتى أن أحدهم اقترح أن نوصي خطيب المسجد أن يخصص خطبة الجمعة عن عاطف!

كان يأخذ مني الملابس للمكواه، ثم يعود بعدها بساعة سائلًا عن ملابس للمكواة! أقسم له أن لم يعد في بيتي إلا الملابس التي أرتديها، فيرد بأدب يثير عصبيتي: «لبس العافية يا بيه!» ثم بعد ساعة أخرى يعود حاملًا الملابس التي تم كيها، وقبل أن تمر ساعة ثالثة يعود مرة ثالثة سائلًا عن ملابس للمكواة!

فكرتُ مراتٍ أن أجمع له ملاءات الأسرة والمناشف والستائر وقطع القماش القديمة في المطبخ ليأخذها للمكواة! لقد كاد يصيبني بالجنون! لكنني في النهاية قررت أن أتأقلم مع «عاطف»، فلا شكوى لعمه شفعت، ولا نصيحة أو توبيخ نفعوا! فقررت أن أتعايش مع أزمة عاطف بهدوء! لقد كان صبيًا نشيطًا، يريد أن يكون عند حسن ظن عمه الذي رفض أن يتركه يتربى عند «الغريب»، ولعل عمه يوبخه ويتهمه بالتقصير دومًا، وهذا ما يدفعه إلى البحث المستميت عن كل قطعة خيط في الحي! فكرت أن أعطيه نسخة من المفتاح كي يدخل ويأخذ ما يشاء في الوقت الذي يريد على راحته! أو أن أترك باب الشقة مفتوحًا طوال النهار والليل، «فلا أحد يعرف لعاطف مواعيد»!

أصبح الصبي جزءًا من يومي، لم أعد أغضب كثيرًا عندما يضع يده على الجرس فلا يرفعها إلا بعدما أفتح الباب. لم يعد دمي يحترق

من الذهاب والإياب من وإلى باب الشقة، وأنا أقسم له بكل اللغات أنه لا يوجد ملابس للمكواة. حتى أنه لو دق الجرس ذات مرة لمدة بسيطة كالناس لحسبت وقتها أنه مريض! وإذا ما جاء مرتين أو ثلاثة فقط في اليوم الواحد أتصل على عمه وأسأله: «هل عاطف بخير؟!»

التأقلم بالنسبة لي عبادة أتقرب بها إلى ذاتي، وطقوس أؤديها في محراب نفسي، أتلو خلالها صلواتي الخاصة جدًا! فأنا اليوم أعيش في حالة تأقلم جديدة بدأت منذ عدة أيام مع «كوفيد-١٩»! أنا في مواجهة مع اختفاء صوت مكيف الهواء! لقد أصبحت الغرفة غارقة في صمت موحش لا أحبه، فأنا أفضل ذلك الصمت الممزوج بالضجيج! «الضوضاء البيضاء»، تلك التي تبتلع جميع الأصوات خارج الغرفة وداخلها، فلا يبقى سوى صوت الصمت العالي المحبب إلى أذني، وحينها أستغرق في نوم عميق!

الآن وقد سكت الضجيج الهاديء، ولم يبق سوى أصوات من هم خارج الغرفة يتنافسون مع صوت التلفاز وأصوات الهواتف المحمولة التي تأبى أن تهدأ. بعض المارة في الطريق الذين توقفوا تحت نافذتي لمناقشة أحداث مباراة الأهلي، وتحليل تفاصيلها بالطبع، اختلفوا في كل شيء واتفقوا فقط على «مروان محسن!» أستمع إلى كل هذه الأصوات تأتيني دفعة واحدة كدوي القذائف، وعليّ أن أتأقلم معها! دفنت رأسي في وسادتي طامعًا في أن تمتص شيئًا من حدة الأصوات، لكن دون جدوى! فقررت أن أستمع بهدوء لتلك الأحاديث المتناثرة، بل وأن أستمتع بها، حتى وإن بقيت مستيقظًا للصباح!

استرقت السمع، فتميز لي صوتٌ لا أعرف مصدره ولكني أعرفه جيدًا! إنه صوت طالما رافقني، سألني يومًا: «من أنا فيك؟» فأجبته بكل تلقائية: «أنت كبذرة ألقاها القدر بداخلي، فنمت بمرور الأيام والأشواق حتى أصبحت شجرة حياة، تتمدد جذورها في أعماق قلبي، فتزداد رسوخًا رغم كل ما مررنا به! تتفرع أغصانها في زوايا روحي، فتُنير جوانبها المعتمة بالحب والسعادة، وحفيف أوراقها الخضراء يحمل لي نسيمًا باردًا يلفح وجنتيّ المشتعلتين شوقًا». سألني: «من أنت فيّ؟» فقلت: «أنت الذي يراك الجميع في عيني ولا يبصرونك، تُضيء قناديلها بزيت وجودك»!

دفنت رأسي أكثر في الوسادة، فلا رغبة لدي الآن في استعادة تلك الأيام! وضعت وسادة أخرى فوق رأسي لعلي أختفي بينهما! لا يزال الصوت يحوم حول أذني، يدندن لحنًا حزينًا أحفظه عن ظهر قلب! يأخذني إلى أوتار عوده، فرأيت ملامحه واضحةً جدًا، رغم كومة الوسائد التي أختبئ فيها! لقد مارستُ النسيان كثيرًا بتفوق. مرات قليلة تلك التي خانتني نفسي فيها ولم ترضخ لسطوتي ففرت هاربة لترقد عند عتبته تتشمم رائحة أيامه الراحلة!

يبدو أن صوت الصمت الخالي المنبعث من جثة «مكيف الهواء» ينبش في الماضي! إن آخر ما خططت له الليلة هو أن أسهر مع طيف من الماضي لا يغيب، أتناساه ولا أنساه، فالنسيان هو فسحة قصيرة خارج الزمن تركض فيها بأقصى سرعة، مخلفًا وراءك شيئًا تريد أن تغادره، تبتعد عنه مسافةً كافيةً تحميك من أذاه المحبب إليك

أصلًا! وتمنحك شيئًا من فقدانه المؤقت، وهذا ما أحتاجه الآن. رفعت الوسائد التي أصبح عددها أربعة من فوق رأسي، واستلقيت على ظهري ناظرا لسقف الغرفة. قررت أن أركز في بقعة زيتية بارزة لا يتجاوز قطرها خمسين مليمترًا. تعجبت من قدرتي على ملاحظتها رغم دقة حجمها! حاولت التركيز فيها، ضيقتُ حدقة عيني وصببت جام نظري عليها، كما لو كنتُ أستجدي منها النوم أو أن أنسى فيها طنين الذكرى المتزاحمة على باب أذني! لكن الزمن بدا كما لو كان يتدفق للوراء، رافضًا الانصياع لأمري! ورغم حالة التمرد المحيطة بي، ابتسمت! فأنا أحب الالتفات للوراء بين الحين والآخر. تلك الساعات التي أناجي فيها قلبي وتسحبني بنعومة للماضي، فتحضر صورتك بقوة لتعانق أحزاني، وتربت عليها، فأفتح فمي وأحرك شفتي بحروف صامتة! إذ ألف كلمة وكلمة يتزاحمون للتعبير عما يجيش في صدري. إنها المحاولات العبثية المعتادة! ففي وجودك تظل مشاعري حبيسة .

يظل مشهد النهاية عالقًا في ذهني، أتدرين! أنتِ الشيء الوحيد الذي لم أستطع الانتصار عليه أبدًا! مهزوم فيك ومعك! وأستمتع بهذه الهزيمة، أتغنى بها، وأكتب عنها! ورغم أن النهاية كُتبت بأكثر من صياغة وعُرضت بأكثر من سيناريو، فقد استسلمت لك. إن تلك الحالة الروحانية التي تنغمس فيها روحك تعرقلني، وإنه لأثم عظيم أن أنتزعك من غمرة الخيال الذي تختبئين فيه قاعة، ترقصين على أطراف أصابعك! تدندنين بألحان كتبتِها بنفسك، تصفين فيها ملامح قلبي وحبي، وترسمين برشيتك الصغيرة عينيّ المعلقتين بشفتيك حينما

تهمسين باسمي!

لقد كانت النهاية مناسبة جدًا لنا. فمَن مثلكِ لم يُخلق للواقع الفظ الذي أحياه أنا! أنت طيف يجب أن يبقي طيفًا! طيفٌ جميل! من الظلم أن أجعل منك جسدًا جامدًا أو كيانًا قاسيًا! لقد نجحت أيضا في التأقلم مع كونك «الشبح» الأجمل في دنياي!

رفعت بصري في اتجاه مكيف الهواء، و لا أدري ما الذي دفعني للقيام من السرير وتحريك زر التشغيل! فالأسطورة تقول: عند تعطل الجهاز الكهربائي، عليك إعادة تشغيله بعد عدة دقائق! ورغم أني لا أومن بالأساطير، فإن الصوت المحبب إلى أذني انطلق نحوها ولفح الهواء البارد وجهي. فأسرعت بالاختباء وسط كومة الوسائد والغطاء، وأغمضت عيني قبل أن يعدل المكيف عن رأيه!

كيف لا أومن بالأساطير وقد آمنت بك!

-٦-

في اليوم التالي وفي نفس التوقيت، حين كنتُ أدخل المقهى قابلني النادل بابتسامته المطمئنة المعهودة، والتي يخبرني فيها أن «طاولتي» في انتظاري. توجهتُ إليها وأنا في اشتياق لفنجان قهوة، ورائحة اعتراف أحدهم تثير حماستي وبهجتي. وجدتُ زهور القرنفل البيضاء موضوعة بترتيب وسط المائدة، فابتسمت للنادل وشكرته. فابتسم كما لو كان يعني إخباري أنه يستمتع معي بتلك المقابلات غير المخطط لها!

أخذت زهرة وقربتها مني أتفحص لونها الأبيض الناصع الجميل، رغم أنها في الأصل نبتة وردية اللون، لكن تم تهجينها عدة مرات للحصول على ألوان أخرى، منها الأبيض الذي أعشقه. إنها زهرة راقية من وجهة نظري! أعدتها مكانها وأخرجتُ حاسوبي وأوراقي، وقبل أن أعيد الزهرة إلى مكانها كان قد سبقني وأخذ مكانه على المائدة، رجل في الخمسين من عمره تقريبًا أو تجاوزها بقليل، هكذا بدا لي، يعمل على ما أعتقد في التسويق. فطريقة تصفيف شعره وملابسه توحي بذلك. كما أن آثار حمل الحقيبة الجلدية واضحة على أصابعه.

- ممكن أعترف؟

قالها بصوت منخفض فلم أتمالك نفسي من الضحك! أضحكني

سؤاله مما جعله يتردد وهو يتابع حديثه:

- أخبرني صديقي أنك.. أقصد أننا نأتي إليك و... لا أدري، ولكنه أخبرني أنه ارتاح جدًا بعدما أفضى إليك بمخاوفه.
- لا عليك من التوصيف. تفضل، كلي أذان صاغية.
- أنا خائف!
- ممن؟
- من الأشباح!

جاءت إجابته صادمة! بالنسبة لرجل في مثل عمره ومظهره، ولكنها كانت صادقة جدًا ومعبرة عن علامات الهلع التي تخنق ملامحه! أجبته:

- أي أشباح؟
- أشباح الدور الثالث!
- هل يمكنك أن توضح لي أكثر؟
- كنت أسكن في شقة في الطابق الرابع في عمارة مكونة من خمسة طوابق، ومنذ أن تفتحت عيناي وأنا أسمع عن الشقة «المسكونة» في الطابق الثالث! مسكونة بالأشباح طبعًا! عشت عمري كله لم أر أبدًا مالكها الذي كان طبيبًا مهاجرًا، اشترى الشقة على أمل أن يعود لوطنه من وقت لآخر إلا أنه لم يعد أبدًا. ونشأت أنا على أحاديث سكان

العمارة حول هذه الشقة المرعبة وما يدور فيها من «خناقات» حتى وصلت بعض الادّعاءات لوقوع جرائم قتل وخطف داخل هذه الشقة، كنت أسمع أصواتًا كثيرة تصدر منها، خاصة في الليل وعندما لا يبقى سوى صوت الصمت، تبدأ الأشباح في الحركة والشجار ونقل الأثاث والجري! فكنت أتعرق في مكاني وأدفن وجهي تحت الغطاء داعيًا المولى عز وجل ألا ينتبهوا لوجودي!

أكمَل:

- كبرت وصرتُ شابا، تغيرت كثيرًا ولكن بقى شيء واحد على حاله لم يصبه تغير، رعبي من تلك الشقة، لا أحد من الجيران يجرؤ على الاقتراب منها! كان يتهيأ لي أحيانًا أن بابها يفتح ويغلق سريعًا أثناء مروري عليها! وهنا تكمن المأساة! إذ كان لا بد من أن أمر عليها أثناء وصولي لشقتنا. لو كنا نسكن في الطابق الأول أو الثاني لما اضطررت للمرور عليها لكنها في الطابق الثالث وأنا في الرابع! أي أنه لا مهرب ولا مفر من المرور عليها! أثناء النهار لم يكن الأمر مخيفًا بالنسبة إلي كثيرًا لكن من بعد العشاء، وحينما يحل الظلام كان الصعود إلى بيتي مخاطرة كبيرة! فابتداءً من الطابق الأول، أمهد

لنفسي بأني سأكون أمام شقة الأشباح خلال دقيقة! وعلي أن أستحضر كل الآيات القرآنية لأتمكن من اجتياز الطابق الثالث! وما إن تصير قدماي عند أول خطوة في الدور، حتى أبدأ في أخذ كل عشر درجات في قفزة واحدة، وعيناي مثبتتان على الباب الذي أتوقع أن يفتح فجأة وتبتلعني الشقة!

- ألم تفكر بأنها قد تكون مجرد هواجس؟
- الأمر لم ينته بي عند هذه المرحلة. لقد حدث بيني وبين لحظات الرعب التي أعيشها أثناء مروري أمام الشقة نوع من الارتباط العجيب حتى صارت جزءًا من تكويني النفسي!
- كيف؟
- انتبهتُ لكوني إذا صعدتُ إلى شقتنا في صحبة أحدهم وكان المرور آمنًا، عدتُ مرة أخرى بعد ذلك ونزلت وحدي وأنا أقفز درجات السلم من الرعب ثم أعود مرة أخرى بنفس الطريقة! ثم أدخل البيت.

أكمل:

- لم أخبر أحدًا بهذا الكلام، ليس لكونه سر، ولكن لكوني لم أفهم حالتي، لم أفهم نفسي في هذه المنطقة من العالم «الطابق الثالث»! ثم أصبحت مهووسًا

بالصعود والهبوط مرورًا من أمام الشقة المسكونة! أستعد لمواجهة هذه اللحظات طيلة اليوم، أتعجل الرجوع إلى شقتنا ثم أتعجل النزول مرة أخرى! شيء عجيب يدعوني للمواصلة والاستمرار، حتى نحفت ُ كثيرًا من تكرار الصعود والنزول قفزًا، وبدأت ركبتاي في الشكوى من استهلاكها السيء، وأنا لا أسمع لشكواها ولا لشكوى الجسد النحيل! كل ما أسمعه هو صوت الرغبة للمزيد، هل مستني الأشباح؟ هل أصابتني لعنة الدور الثالث؟ ولماذا لم تصب غيري من سكان العمارة؟

سألته:

- هل لا زلت تسكن في نفس المكان؟

- لن تصدقيني إذا أخبرتك أنه بعد وفاة والديّ صممت أن تكون تلك الشقة هي نصيبي من الميراث! ورغم أنها أقل من حقي ففد أخبرت إخوتي بأني سأكتفي بها! وإلى الآن، عند عودتي إلى بلدي أقيم فيها وأشعر بنفس الشعور الذي كان ينتابني منذ عشرات السنوات!

- يعني هذا أنك شُفيت مؤقتًا من هوسك في غربتك؟

- كنت أعتقد ذلك، لكن ما حدث معي هو سبب

وجودي أمامك الآن!

- ماذا حدث؟
- تعرفين جيدًا أن جائحة «كورونا» قد تسببت في خسائر اقتصادية كثيرة على مستوى المؤسسات والأفراد.
- نعم.. أعلم ذلك.
- لقد دفعتني الظروف المادية لتغيير السكن الذي سكنت فيه منذ وصولي إلى هنا.
- ثم؟

حثثته على المتابعة.

- أثناء بحثي عن سكن، وجدت شقة تقع في الطابق الرابع لعمارة من خمسة طوابق.

عندها نظرتُ إليه، فقد قرأت في صوته وعينيه بقية الحكاية فقلت:

- استأجرتها؟!
- بدون تفكير.
- هل..؟
- نعم.

جاءت إجابته لتقطع السؤال الذي لم أسأله! ثم تابع:

- استأجرتُها ولم أستخدم المصعد إلا إذا كنتُ صاعدًا مع أحد! ثم أختلق أي عذر لأعود مرة أخرى لأمر على الطابق الثالث، ولأقفز العشر درجات

بالطريقة نفسها، رغم أن الطابق الثالث في عمارتنا مكون من أربع شقق، كلها مسكونة إلا أن عقلي يأبى أن يعترف بذلك! لقد أصبحت أسيرًا للطابق الثالث!

- معذرة يا صديقي الجديد، أنت لست أسيرًا للطابق الثالث أنت أسيرٌ لشيء أخر!
- تقصدين... الخوف؟
- لا ليس للخوف. بل أسير لرغبة خفية جدًا تحكمت فيك ولا زالت تتحكم حتى الآن!
- ما هي؟
- إن الانسان يشعر بالخوف من شيء ما، ويشعر بالرغبة في شيء ما وإن كان فهمه غامضًا لذلك الخوف أو تلك الرغبة.
- ماذا يعني ذلك؟
- قل لي.. هل كل ما نخاف منه نكرهه؟
- المفروض أن يكون كذلك!
- لا ليس مفروضًا ولا واقعًا أصلًا. فنحن نخشى من أمور كثيرة ومع ذلك نحبها، بل نرغب فيها بقوة!
- أليس هذا تناقضًا؟
- كثير من الانفعالات لا يمكن تفسيرها ولا فهمها، ومن الجيد لها ولنا أن تبقى دون شرح، أن تبقى

كما هي.

أكملت:

- أعتقد أن الطابق الثالث هو لك بمثابة شخص تحبه ولكنك تخشاه! إن الخوف الذي كان مصاحبًا لكل ذلك الانجذاب يعني أنك كنت تختلق عالمًا لك وحدك، تسعى إليه بكل شغف وجنون. ولكنك في نفس الوقت تخشاه! عالم أردت أن تكون أنت بطله الوحيد! شغلتك الحياة والسفر عن عالمك الوهمي فترة من الزمن، ولكن بمجرد أن تواجدت في بيئة تشبه بيئة جموحك الماضي وانفعالاتك المختلفة، سرعان ما انزلقت مشاعرك في نفس البئر القديم، لتجد نفسك في مواجهة نفسك مرة أخرى! وسواء كان الطابق الثالث هو نفسك أو كان هي رغبة تمنيت تحقيقها ولكنك تخشاها، سواء هذا أو ذاك، فمن المؤكد أنها ليست «أشباحًا».

قام من مكانه، ومائة سؤال يرقصون حول شفتيه! سمعت صوت أعماقه.. إنه يريد أن يسمع المزيد!

من الرائع أن تجد أحدهم يجيد قراءتك. حينها تتشبَّث به، لا تريد أن تغادره!

أنا أجدت قرائتهم جميعًا، واكتفيت بهذا القدر، سألملم أوراقي وأشلائي، وسأسير ما بقي لي من أيامي أبحث عمَّن يجيد قرائتي، لا مَن أحسِن أنا قراءَتَه!